obeikandl.com

معجم شخصيات

موسم الهجرة إلى الشمال

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

بيومي؛ مصطفى بيومي
معجم شخصيات موسم الهجرة إلى الشمال/ مصطفى بيومي. - القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع/ ط ١/ القاهرة: ٢٠١٦م.
١١٩ص؛ ١٧×٢٤سم
تدمـــــك: ٤-٠٣٣-٧٩٧-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص العربية - تاريخ ونقد
أ- العنوان
٨١٣،٠٠٩

اســم الكتـاب: معجم شخصيات موسم الهجرة إلى الشمال

الـمـــؤلـــف: مصطفى بيومي

الناشر

بورصة الكتب

٢٥ شارع شريف- القاهرة
تليفاكس: 0223920369 محمول: 01001889363
Email: adel.metwaly69@yahoo.com
Email: borsatelkotob@gmail.com

رقـــم الإيـداع: 8391 / 2016
الترقيـم الدولي: 978-977-797-033-4

حقوق الطبع محفوظة
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

obeikandl.com

معجم شخصيات

موسم الهجرة إلى الشمال

مصطفى بيومي

بورصة الكتب
2016

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

في منتصف ستينيات القرن العشرين، تنفجر قنبلة من الإبداع الراقي الناضج تحمل عنوان «موسم الهجرة إلى الشمال»، وعبر نصف قرن بعد صدورها تبقى رواية الطيب صالح علامة شامخة في تاريخ الرواية العربية، تحمل لقرائها متعددي الأجيال والثقافات والتوجهات السياسية ذلك الشعور الدافئ بمتعة فريدة تنعش القلب والعقل والروح معًا.

لا شيء من الإنصاف في القول إن رواية الطيب تعبر عن الصراع بين الشرق والغرب، فهي تعالج القضية ولا تقتصر عليها. إنها ليست امتدادًا لجملة من الأعمال السابقة الجادة، التي تنشغل بالهم نفسه، مثل «عصفور من الشرق» و«قنديل أم هاشم» و«الحي اللاتيني» و«الساخن والبارد»، للأساتذة المرموقين توفيق الحكيم ويحيى حقي وسهيل إدريس وفتحي غانم. ينبع الاختلاف الجوهري من حقيقتين متداخلتين متشابكتين لابد من الانتباه إليهما والوعي بخطورة تأثيرهما. تتعلق الحقيقة الأولى بخصوصية «الشرق الأسود» في رواية الطيب صالح، وهو شرق عربي أفريقي لا يشبه الشرقين المصري واللبناني، أما الحقيقة الثانية فتدور حول شخصية مصطفى سعيد، العبقري حاد الذكاء الذي يقتحم الغرب في عاصمته الأشهر، لندن، كأنه الغازي الذي يثأر وينتقم، مسكونًا بتاريخ موجع من القهر والاستغلال الذي يطول قومه. يتخذ من النساء الإنجليزيات قلاعًا وحصونًا يغزوها، حتى يصطدم بامرأة ذات خصوصية، جين مورس، تنتقل به من ساحة الانتصارات المدوية المتتالية إلى هاوية التراجع والدفاع والانكسار، وصولاً إلى الهزيمة والقتل والسجن، ثم العودة إلى النبع والجذور بحثًا عن صفاء الروح واستقرار الجسد.

بخلاف الروايات المشار إليها، وغيرها، ينفرد الطيب صالح بتقديم رؤيته للصراع من خلال شخصيتين تنتميان إلى المعسكر نفسه، مصطفى سعيد والراوي، فهما أقرب إلى عنصرين

متلازمين متزاملين في «سباق التتابع»، الذي يؤكد أن القضية متشعبة الأبعاد قائمة ممتدة، مع الإقرار بالاختلاف النسبي في المواقف والرؤى وأدوات التقييم والتحليل. المسألة ليست فردية تخص مصطفى سعيدًا وحده وتنتهي بنهايته، كما أنها ليست مرحلية جيلية يتراجع الإحساس بها في ظل بعض المتغيرات الشكلية. القضية أعمق وأشد تأثيرًا وخطرًا مما يبدو للوهلة الأولى، وتتخذ شكلاً مغايرًا مع بقاء المرتكزات والثوابت. مصطفى سعيد، على الصعيد الشخصي، ناجح متفوق متحقق، تجمعه صداقات وعلاقات وثيقة مع صفوة المجتمع الإنجليزي، ويحظى بوظيفة محاضر للاقتصاد في جامعة لندن وهو في الرابعة والعشرين من عمره. ينشر كتبًا مثيرة للجدل باللغة الإنجليزية، وتتهافت عليه النساء، ويعيش حياة أقرب إلى الرفاهية والرغد. تنبئ المؤشرات جميعًا بمستقبل مرموق ينتظره ويصعد به إلى القمة، شريطة أن يقبل الذوبان في نسيج المجتمع الإنجليزي. الأمر إذًا ليس شخصيًا، والصدام مع الغرب لا ينبع من خيابات ذاتية تصنع التوتر والضيق والاضطراب.

يمكن القول إنه لا فائز أو مهزوم في الصراع العنيف الملتهب الذي تقدمه الرواية، والبديل المطروح ليس المباركة والإقرار بصحة مقولة الشاعر الإنجليزي رديارد كبلنج: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا». الأمر ليس على هذا النحو ولا يمكن أن يكون؛ ذلك أن النجاح الحقيقي المنشود هو أن يلتقيا عبر أسس واضحة عادلة، تبتعد عن التوفيق الهش والتلفيق المزور. المدخل الأمثل للمصالحة والتناغم في وعي الطرفين بحقيقة الموقع الذي يحتلانه في الخريطة الحضارية والثقافية، وأن يعترف كل طرف بخصوصية الآخر من ناحية ويعي مفردات خصوصيته من ناحية أخرى.

ينطلق مصطفى سعيد من السودان وإليها يعود، وبعد سنوات من موته غرقًا واستقراره في بطن التماسيح، تندفع أرملته حسنة محمود لتكرار فعلته القديمة مع جين مورس، فهي تقتل الزوج العجوز المفروض عليها قهرًا، وتنتحر. لا يقتصر القتل إذًا على المتصارعين ممن ينتمون إلى معسكرات متناقضة، الشرق والغرب، ولابد من التسليم بأن الحياة ليست إلا مجموعة من الثنائيات التي تتجاوز ثنائية الصراع بين الشرق والغرب. ثمة أسئلة كثيرة تطرحها الرواية لتكريس وتسييد هذه الفكرة، ومن ذلك ما تتوقف أمامه عن معاناة الفقراء والبسطاء في زمني الاحتلال والاستقلال، وهيمنة القيم الذكورية التي لا تمنح المرأة حقوقًا تليق بإنسانيتها،

فضلاً عن أزمة التحديث المادي الميسور نسبيًا في مواجهة التعثر الذي تتسم به عملية التغيير المعرفي المتعلق بالقيم والعادات الاجتماعية وجملة المفردات التي تتشكل منها المنظومة الثقافية المتحكمة في إيقاع المجتمع.

□□□

تتجسد قضايا الرواية من خلال شخصيات شتى، متباينة الوجود الكمي والتأثير الكيفي، ولاشك أن إعادة إنتاج وترتيب هذه الشخصيات، وهو ما تسعى إليه الدراسة، يفيد كثيرًا في قراءة متوازنة شاملة، تستهدف التواصل مع طبقات النص والكشف عن أهميته عبر منهج مختلف.

مصطفى سعيد والراوي، الذي لا يحمل اسمًا، هما الأكثر أهمية وحضورًا، ولأعلام القرية وعلاماتها دور مهم في التشكيل: الجد المعمر أحمد، بنت مجذوب، حسنة محمود، محجوب، ود الريس. وفي رحلة مصطفى بمحطاتها المختلفة شخصيات ذات أهمية مماثلة: أمه فاطمة عبد الصادق، أمه البديلة اليزابيث وزوجها روبنسن، عشيقاته الثلاث إيزابيلا سيمور وشيلا غرينود وآن هممند، زوجه وقتيلته جين مورس، فضلاً عن المحامي الذي يدافع عنه والمدعي العام الذي يطالب بإعدامه.

مع هؤلاء الفاعلين المؤثرين بدرجات متفاوتة، كمًا وكيفًا، تطل الشخصيات الهامشية الثانوية العابرة، لكن هؤلاء بمثابة «ملح الرواية». بهم يتحقق المذاق، ولا اكتمال للبناء العام المتماسك بمعزل عن وجودهم. من خلالهم تتشكل اللوحة وتنضج الشهادة، ومن الذي يزعم أن لعبة الشطرنج لا تحتاج إلى البيادق، أو يمكن أن تُلعب اعتمادًا على الملك والوزير والطابية والحصان والفيل؟!.

مثل كل كاتب أصيل متمكن، ذي نزعة إنسانية أصيلة عميقة، لا يتحامل الطيب صالح على شخوصه ولا يسرف في التعاطف معهم إلى درجة التدليل. إنهم بشر في نهاية الأمر، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، والبطولة عنده للإنسان الذي لا يمكن أن ينتسب إلى عالم الملائكة أو كتائب الشياطين. على النهج نفسه يسير الباحث في تحليله، فهو يقدم ملامح الشخصيات وطبيعة تكوينهم وخلاصة الشهادة المستمدة من وجودهم. غاية المأمول عنده أن تسهم

الصفحات التالية في تقديم اجتهاد مختلف، يعبر عن بعض حبه واحترامه للكاتب العملاق، وتجسد يقينه بأن الرواية هي الشكل الأدبي القادر على التفاعل مع حياة تزدحم بالكثير مما يستدعي التأمل والاشتباك.

مصطفى بيومي

القاهرة 3 - 1 - 2016

obeikandl.com

أ

آمنة

ابنة بنت مجذوب، ولا يروق زوجها للأم الجريئة ذات الولع غير المحدود بالأحاديث الجنسية الصريحة. لا تكشف الرواية عن ملابسات الزواج الذي يتم دون إرادة بنت مجذوب، التي تزوجت مرات عديدة ولم تنجب إلا ولدًا واحدًا: «وعددًا لا يُحصى من البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن في الحديث، مثل أمهن».

بعد عام من الزواج، تعود آمنة بصحبة زوجها في زيارة للقرية، ويعتزم الرجل الذي لا يحمل اسمًا إقامة وليمة يدعو إليها أقارب زوجه: «فقالت له الزوجة: إن أمي لا تتحرج في كلامها ومن الخير أن ندعوها وحدها. وفعلاً ذبحوا وأولموا لها. وبعد أن طعمت وشربت قالت لابنتها وزوجها يسمع: يا آمنة. هذا الرجل لم يقصر في حقك. فمسكنك حسن وملبسك حسن؛ وقد ملأ يديك ورقبتك ذهبًا. ولكن لا يبدو على وجهه أنه يقدر على إشباعك في الفراش. فإذا أردت الشبع الصحيح فأنا أعرف لك زوجًا إذا جاءك لا يتركك حتى تزهق روحك. ولما سمع الزوج هذا الكلام غضب غضبًا شديدًا وطلق زوجته ثلاثًا في الحين».

لا تغيب عن آمنة طبيعة شخصية أمها، والإصرار على دعوة الأم منفردة ليس إلا محاولة للحد من الآثار السلبية التي قد تترتب على صراحتها الفجة المثيرة وسط حشد من المدعوين، لكن بنت مجذوب توجه ضربة قاضية للزوج غير المقصر في كرم الضيافة، وهو ما يتوافق

obeikandl.com

مع عطاياه السخية لآمنة، مسكنًا وملبسًا وذهبًا. الإشارة المسيئة إلى محدودية القدرة الجنسية تثير غضبه بطبيعة الحال، والحديث الفج عن زوج بديل، قادر على الإشباع، يتجاوز الصراحة والجرأة إلى الوقاحة وتعمد الإهانة، ويكشف عن الرغبة الكامنة في تدمير العلاقة الزوجية التي لا تروق منذ البدء لبنت مجذوب، وهو ما يتحقق سريعًا بقرار الطلاق وليد الغضب المبرر.

تنتقم بنت مجذوب على طريقتها، وتستفز بكلماتها العدوانية زوج ابنتها الذي لا يعيبه شيء على المستوى الظاهر المباشر، ومثل هذا السلوك المتهور قد يمكن فهمه واستيعابه عندما يلحق الأذى بالآخرين، لكن العجوز لا تبالي بأن تدفع ابنتها آمنة الثمن، فلا شيء عندها يفوق متعة السخرية الموجعة وشهوة الانتقام غير المحسوب.

أبو الراوي

شخصية هامشية لا تحمل اسمًا، وتستمد وجودها المحدود من الاقتران بالابن الراوي ذي الحضور الطاغي. عند عودة الراوي إلى القرية بعد نهاية بعثته الدراسية الأوروبية، ينتبه إلى مصطفى سعيد الذي لا يعرفه، وعندئذ يتصدى الأب لتقديم تعريف محايد موجز في كلمات قلائل: «قال أبي إن مصطفى ليس من أهل البلد، لكنه غريب جاء منذ خمسة أعوام، اشترى مزرعة وبنى بيتًا وتزوج بنت محمود.. رجل في حاله، لا يعلمون عنه الكثير».

أحمد، جد الراوي لأبيه، يتسم بحضور فعال وجاذبية آسرة لا يحظى بها الابن الذي لا يتحدث كثيرًا، ولا تتكرر الإشارة إليه إلا عند موت مصطفى غرقًا: «حدثني أبي، فقد كنت في الخرطوم وقتها، أنهم سمعوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحي، فهرعوا إلى مصدر الصوت فإذا الصراخ في دار مصطفى سعيد».

لا يميل أبو الراوي إلى الثرثرة والإسراف في الكلام، والسمة الغالبة على تعليقاته المحدودة هي الابتعاد اللافت عن الخوض في التفاصيل. لا تروق للابن الراوي رغبة العجوز ود الريس في الزواج من أرملة مصطفى، ولا يغيب الغضب الذي يسكنه عن أبيه: «وفي بيتنا سألني أبي عن سبب غضبي فحكيت له القصة. ضحك وقال: هل هذا شيء يثير الغضب؟».

تساؤل موجز يكشف عن وعيه بتقاليد المجتمع القروي وأعرافه واجبة الاحترام، والمثير

للدهشة أن الأرملة التي ترفض الزواج من ود الريس، في تمرد غير مسبوق، تلجأ إلى والد الراوي في غيابه، وتطرح عليه اقتراحًا لا يتوافق مع الثوابت الموروثة التي تسلب المرأة كل الحق في الاختيار و إبداء الرأي. وفقًا لما تقوله أم الراوي لابنها: «جاءت لأبيك وقالت له بلسانها: قولوا له يتزوجني. يا للجرأة وفراغة العين».

تستهجن الأم رغبة حسنة في الزواج من ابنها المتزوج، وتستنكر جرأتها الجديرة بالإدانة، لكنها لا تتطرق إلى رد الأب على ما يُقال له، وفي حادثة قتل ود الريس بيدي الزوجة المتمردة المنتحرة، لا يظهر أبو الراوي أيضًا، فكأنه يقنع بالدور الهامشي الذي لا يمنحه وجودًا فاعلاً.

أحمد

جد الراوي، ويكتسب وجوده الروائي طابعًا أسطوريًا سحريًا على الرغم من إيغاله في الواقعية، ويتجسد ذلك التكوين الاستثنائي بوضوح في كلمات حفيده، الذي يراه كائنًا خارقًا كأنه معجزة تمشي على قدمين: «إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب، ولكنه كشجيرات السيال في صحارى السودان، سميكة اللحى حادة الأشواك، تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة. وهذا وجه العجب. إنه عاش أصلاً رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام. وها هو ذا الآن يقترب من عامه المائة، أسنانه جميعًا في فمه، عيناه صغيرتان باهتتان تحسب أنهما لا تريان ولكنه ينظر بهما في حلكة الليل، جسمه الضئيل منكمش على ذاته، عظام وعروق وجلد وعضلات، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم، يقفز فوق الحمار نشيطًا، ويمشي في غبش الفجر من بيته إلى الجامع».

الحاج أحمد شاهد أصيل على طبيعة الحياة السودانية وتفردها وما تتمتع به من خصوصية وتفرد، فهو يندمج في نسيج الواقع المحلي ويتحول إلى عنصر فاعل من مكوناته الراسخة. يتجاوز المحن والعقبات والتحديات، ولا تقهره الأوبئة والمجاعات والحروب، ولا يفلح الفساد المزمن في هزيمته وكسر إرادته الصلبة وعزيمته الجبارة. يقترب من معانقة عامه المائة، محتفظًا بتوهجه وحضوره الأخاذ كأنه في ريعان الشباب.

ما أكثر الذين يتاجرون بالحاج أحمد وأمثاله من البسطاء الأصلاء الطيبين، ويزعم هؤلاء المتاجرون أنهم يعملون للدفاع عنهم وحماية حقوقهم في ساحة السياسة والعمل الحزبي. لا يملك الراوي إلا أن يفكر ساخرًا في الشعارات الانتخابية الملونة الفضفاضة التي ترفعها الأحزاب في معاركها للاستحواذ على السلطة: «لو قلت لجدي إن الثورات تُصنع باسمه، والحكومات تقوم وتقعد من أجله، لضحك. الفكرة تبدو شاذة فعلاً».

لابد أنه سيضحك لما تتسم به المقولة من شذوذ وغرائبية، فهو يعاين الانفصال الكامل بين الشعارات الإنشائية الكاذبة وواقع الحياة الحقيقية الحافلة بالمرارات، وعندما يعود الراوي من بعثته الدراسية الأوروبية، يحترق شوقًا للقاء جده المعمر الطيب الحكيم، فهو الملاذ الآمن والحصن المنيع الذي تتحقق من خلاله المصالحة مع الحياة المرتبكة، ويلوح الأمل في التوافق مع المعطيات الحافلة بالتحديات المرهقة: «وأذهب إلى جدي، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عامًا، قبل خمسين عامًا، لا بل ثمانين، فيقوى إحساسي بالأمن. كنت أحب جدي، ويبدو أنه كان يؤثرني. ولعل أحد أسباب صداقتي معه، أنني كنت منذ صغري تشحذ خيالي حكايات الماضي، وكان جدي يحب أن يحكي، ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتي. وكنت حين يلم بي الحنين إلى أهلي، أراه في منامي. قلت له ذلك، فضحك وقال: حدثني عراف وأنا شاب، أنني إذا جاوزت عمر النبوة – يعني الستين- فإنني سأصل المائة. وحسبنا عمره، أنا وهو، فوجدنا أنه بقي له نحو اثنى عشر عامًا».

الماضي والحاضر هما دعامتا المستقبل، وغياب الوعي بهما يفضي بالضرورة إلى كارثة القطيعة وتهديد الهوية. من هذا المنطلق، يتعلق الراوي الشاب بجده، ويندمج الجد بدوره مع الحفيد، ويبدو الموت مثل محطة لم يئن بعد أوان الوصول إليها، لكنها لا تثير الرعب ولا تبعث على الخوف. لأن الأساطير لا تموت، يفكر الراوي في المشهد الأخير الحتمي بلا إسراف في الحزن والفجيعة: «هل هو فوق هذه الفوضى؟ لا أدري. ولكنه بقي على أي حال، رغم الأوبئة وفساد الحكم وقسوة الطبيعة. وأنا موقن أن الموت حين يبرز له سيبتسم هو في وجه الموت. ألا يكفي هذا؟ هل ابن آدم مطالب بأكثر من هذا؟».

ليس مستغربًا أن يكون الجد أحمد مثلاً أعلى ومرادفًا لكل ما هو إيجابي مثمر منعش في حياة

الحفيد الراوي، فبه ومنه يستمد الشعور بالقوة والخصوبة ومتانة الجذور التي لا يسهل اقتلاعها: «ذلك الإحساس العذب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر. إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق مايزال موجودًا أصلاً على ظاهر الأرض. وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع. وذلك الصوت النحيل المطمئن، يقوم جسرًا بيني وبين الساعة القلقة التي لم تتشكل بعد، الساعات التي استوعبت أحداثها ومضت، وأصبحت لبنات في صرح له مدلولات وأبعاد».

الحاج أحمد ذو رائحة فريدة ذات مذاق مختلف، ووجوده يضفي على الحياة المتجهمة رونقًا ومعنى. إنه مزيج من الواقعي والأسطوري، وصموده أمام الأعاصير والزلازل يمنح القوة ويحقق المصالحة والانسجام والتناغم. البيت الذي يعيش فيه الرجل الخارق هو الامتداد المنطقي لشخصيته، حيث الفوضى المنظمة والنظام الذي يتشكل عبر آليات يحكمها قانون خاص: «هي دار فوضى قائمة دون نظام، واكتسبت هيئتها هذه على مدى أعوام طويلة: غرف كثيرة مختلفة الأحجام، بُنيت بعضها لصق بعض في أوقات مختلفة، إما حسب الحاجة إليها أو لأن جدي توفر له شيء من المال لم يجد وسيلة أخرى ينفقه فيها».

الإعجاب غير المحدود الذي يهيمن على الراوي يتجاوز صلة الدم مع الجد، فللرجل مكانة سامية متفردة تنبع من جاذبيته الآسرة، وليس أدل على ذلك من الموقع الذي يحتله الحاج أحمد في قلب مصطفى سعيد، الغريب الوافد على القرية، وصاحب التجارب الثرية التي تجعل أحكامه جديرة بالاهتمام والاحترام: «جدك.. ذاك رجل. ذاك رجل.. تسعون عامًا وقامته منتصبة، ونظره حاد، وكل سن في فمه. يقفز فوق الحمار خفيفًا، ويمشي من بيته للمسجد في الفجر. هاه ذاك رجل. كان مخلصًا وهو يقول هذا. ولم لا؟ وجدي، في واقع الأمر، أعجوبة».

شهادة مصطفى سعيد ذات أهمية خاصة، فلا قرابة أو مصلحة تجمعه بالرجل، ولا تعلق عنده بالعواطف التقليدية والاندفاع الانفعالي غير المحسوب. في المقابل، يحمل الحاج أحمد ودًا مماثلاً لمصطفى، ويبدي الإعجاب بذوبانه الصادق في حياة القرية دون تقوقع أو انكفاء على الذات: «يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام، وأنه يسارع بذراعه وقدحه في الأفراح والأتراح.. هكذا طريقة جدي في الكلام».

الحاج أحمد وحفيده الراوي هما الأقرب إلى قلب وعقل مصطفى سعيد، ولا يخفي محجوب دهشته بعد أن يوصي مصطفى بأن يكون الراوي وصيًا على ولديه: «كنت أتوقع أن يجعلني أو يجعل جدك وصيًا. جدك كان صديقه الحميم. كان يحب الاستماع إلى حديثه. كان يقول لي: تعرف يا محجوب؟ حاج أحمد رجل فريد من نوعه. وكنت أقول له: حاج أحمد رجل مخرف. فيزعل جد ويقول: لا، لا تقل هذا. حاج أحمد جزء من التاريخ».

اختيار الراوي وصيًا وثيق الصلة بالعلاقة الحميمة التي تجمع بين مصطفى والحاج أحمد، فهو يدرك بالضرورة أن العجوز المعمر لا يطيق مثل هذه المسئولية الثقيلة، والحفيد الشاب هو الأجدر بأداء الدور المنشود: «إنني أحملك الأمانة لأنني لمحت فيك صورة عن جدك».

من ناحية أخرى، يتميز الحاج أحمد بالتدين البسيط الصادق الذي لا يعرف المبالغة والتشنج، ويخلو من لعنة الادعاء والانفعال. التزامه بالصلاة والدعاء الذي لا يتوقف من أهم ملامح شخصيته، ويتجلى ذلك بوضوح عندما يعود الراوي إلى بيت جده قبيل الفجر، ويرصد عاداته الراسخة التي لا يطولها التغيير: «ووصلت عند بيت جدي فسمعته يتلو أوراده استعدادًا لصلاة الصبح. ألا ينام أبدًا؟ صوت جدي يصلي، كان آخر صوت أسمعه قبل أن أنام وأول صوت أسمعه حين أستيقظ. وهو على هذه الحال لا أدري كم من السنين. كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك».

في جلساته المرحة مع أصدقاء العمر، الذين يصغرونه بعقد أو عقدين، يحرص الحاج أحمد على نشر الأسرة الوطيئة في غرفة السمر، لا تعلو أرجلها عن الأرض أكثر من شبرين، وهو اختيار مقصود: «ارتفاع السرير عن الأرض، في زعم جدي، من الغرور، وقصره من التواضع».

الحرص العفوي على التواضع تجسيد لمشاعره الدينية الصادقة التي لا تنفصل عنده عن السلوك اليومي، وبقدر تقشف الرجل وبساطته فإنه يميل إلى البذخ والترف عندما يتعلق الأمر بلوازم صلاته وأدوات عبادته: «وهو يفتخر خاصة بمسبحته لأنها من خشب الصندل، ويداعب حباتها، ويمسح بها وجهه ويستنشق رائحتها. وكان إذا غضب من أحد أحفاده، ضربه بها على رأسه، يقول إن ذلك يطرد الشيطان».

الأروع والأنقى في شخصية الحاج أحمد هو تجسيده العملي لحقيقة غياب التناقض والصدام بين الدين والدنيا، ومخاصمته للتزمت والتطرف لا تعفيه من سخرية صديق العمر ود الريس، المولع بالنساء والجنس إلى درجة الجنون: «حاج أحمد هذا طول اليوم في صلاة وتسبيح كأن الجنة خُلقت له وحده»!.

حياة بسيطة قوامها الرضا والتعايش مع معطيات الحياة بلا تذمر أو سخط، وقدرة غير عادية على التوافق مع الهموم والمنغصات وجملة التحديات التي تصادفه، لكن رحلته الطويلة مع الحياة لا تخلو من محطة استثنائية، تتمثل في سفره إلى مصر بعد ست سنوات من ميلاد القرن العشرين: «مشيت على قدمي؛ ليس معي غير المسبحة والإبريق».

تسعة أشهر من العمل الدءوب الجاد في حي بولاق القاهري الشعبي، وعلاقة صداقة متينة مع رجل تقي، تقف به على حافة الزواج من ابنته الكبرى: «لكن بعدها بقليل جاني تلغراف بوفاة المرحومة أمي فسافرت في الساعة والحين».

يعود من رحلته المصرية القصيرة ببعض المال فيشتري الأرض ويعمِّر الساقية ويطهِّر الأولاد، ويستقر في القرية راضيًا بالإيقاع الهادئ والحياة الوديعة، متبحرًا في معرفة الأحساب والأنساب. قرب نهاية العمر، يفقد صديقه المقرب ود الريس في جريمة مروعة غير مسبوقة: «وانفجر جدي يبكي. إنني لم أره يبكي في حياتي. بكى طويلاً ثم مسح دموعه بطرف ثوبه وصمت حتى ظننته قد نام. بعد زمن قال: رحمة الله عليك يا ود الريس. اللهم اغفر له وتغمده برحتك. وتمتم بدعوات وقال: كان رجلاً عديم النظير، دائمًا يضحك، دائمًا تجده وقت الشدة. لم يطلب منه أحد حاجة وقال لا. ليته سمع كلامي. ينتهي هذه النهاية. لا حول ولا قوة إلا بالله. أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا البلد منذ خلقه الله. محن آخر الزمن».

نهاية مأسوية لود الريس، جراء ولعه بالنساء وإصراره على الزواج من أرملة مصطفى سعيد، المرأة الشابة التي لا تحبه وتمتنع عنه. تقتله وتنتحر، ويبقى الحاج أحمد ليعاني الحسرة والوجع، ويرصد الانهيار الذي يوحي بنهاية العالم المألوف الذي يعتاده عمرًا كاملاً، لكنه يوشك على الاندثار.

الأعرابي

شخصية هامشية عابرة محدودة الوجود، بقدر ما هي مؤثرة ذات دلالة موحية. يعترض طريق السيارة التي تستقل الراوي في طريقه إلى الخرطوم: «وبرز لنا من وراء التل إعرابي جاء يهرول نحونا، وقطع الطريق على السيارة فتوقفنا. بدنه وثيابه بلون الأرض. وسأله السائق ماذا يريد؟ قال: أعطوني سيجارة أو تنباك لوجه الله. لي يومان لم أذق طعم التنباك. لم يكن عندنا تنباك فأعطيته سيجارة. وقلنا بالمرة نقف قليلاً ونستريح من عناء الجلوس. لم أر في حياتي إنسانًا يشرب السجائر بتلك اللهفة. جلس الأعرابي على مؤخرته وأخذ يشفط الدخان بنهم فوق الوصف. بعد دقيقتين مد لي يده. فأعطيته سيجارة أخرى. التهمها كما فعل مع الأولى. ثم أخذ يتلوى على الأرض كأنه مصاب بالصرع. وبعدها تمدد على الأرض وطوق رأسه بيديه وهمد تمامًا كأنه ميت. وظل هكذا طول مكوثنا، زهاء ثلث ساعة».

لا يحمل الأعرابي مدقع الفقر اسمًا، لكنه يقدم مشهدًا بالغ الأهمية بالنظر إلى جملة الهواجس والهموم التي تسيطر على الراوي قبل توقف السيارة، حيث الاستغراق في تأمل ظاهرة الظمأ المادي والروحي، والتحليق مع ما تحفل به الحياة من مفارقات وصراعات لا يمكن فهمها واستيعابها. لهفة الأعرابي البائس على التدخين بمثابة الامتداد للأجواء المرهقة التي تتشكل منها اللوحة المعقدة متعددة الجوانب، أما حالة الاسترخاء الغرائبية بعد إشباع الحرمان الطويل، فإنها تنم عن طبيعة الحياة في إقبالها و إدبارها. العذاب الذي يشبه الجحيم قد ينبع من غياب متعة التدخين، والسعادة المفرطة التي تمنح الرضا قد تترتب على تدخين سيجارتين في أداء طقسي يشبه الالتهام.

عندما تدور محركات السيارة إيذانًا بمواصلة الرحلة الشاقة، رحلة الحياة، يعود الأعرابي بدوره إلى العالم القديم الذي ينذر بالحرمان: «هب واقفًا، إنسان بُعث إلى الحياة، وأخذ يحمدني ويدعو الله لي بطول العمر، فرميت له علبة السجائر بما بقي فيها. وثار الغبار خلفنا، وراقبت الأعرابي يجري نحو خيام مهلهلة عند شجيرات ناحية الجنوب. عندها غنيمات وأطفال عراة. أين الظل يا إلهي؟».

بقايا علبة السجائر ثروة طائلة، لن يضير فقدها الراوي الذي يستطيع شراء غيرها،

وتمثل خلاصًا مؤقتًا للإعرابي المحروم، لكنها ستنتهي بالضرورة فيعاني الحرمان مجددًا، وعندئذ يكتسب التساؤل مغزى يتجاوز الجميع: أين الظل يا إلهي؟.

اليزابيث

زوجة مستر روبنسن، وصاحبة دور مؤثر بالغ الأهمية في حياة مصطفى سعيد. يقيم الزوجان الإنجليزيان في القاهرة، مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، ويستضيفان المراهق السوداني حاد الذكاء عند مجيئه إلى العاصمة المصرية لاستكمال دراسته. لا أولاد لهما، ويتعاملان مع مصطفى كأنه الابن الذي لم ينجباه، لكنه منذ اللقاء الأول ينظر إلى اليزابيث كامرأة تُشتهى جنسيًا: «وفجأة أحسست بذراعي المرأة تطوقانني، وبشفتيها على خدي. في تلك اللحظة، وأنا واقف على رصيف المحطة، وسط دوامة من الأصوات والأحاسيس، وزندا المرأة ملتفان حول عنقي، وفمها على خدي، ورائحة جسمها، رائحة أوروبية غريبة، تدغدغ أنفي، وصدرها يلامس صدري، شعرت وأنا الصبي ابن الاثنى عشر عامًا بشهوة جنسية مبهمة لم أعرفها من قبل في حياتي».

اليزابيث امرأة ممتلئة الجسم، برونزية اللون، ولا يتوقف مصطفى سعيد عن اشتهائها على الرغم من يقينه أنها تعامله من منطلق عاطفة الأمومة، ويعترف في الوقت نفسه بعذوبتها ومرحها والدور الإيجابي الذي تلعبه عبر مراحل مختلفة من ناحية: «كنت انظر إلى شعر إبطيها وأحس بالذعر.. لعلها كانت تعلم أنني أشتهيها، لكنها كانت عذبة، أعذب امرأة عرفتها. تضحك بمرح، وتحنو عليَّ كما تحنو أم على ابنها».

تذهب مسز روبنسن إلى أن مصطفى سعيدًا إنسان لا يعرف المرح، وتتساءل في نبرة نقدية لا تناقض حبها له: «ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبدًا؟». تقييمها الدقيق المبكر يكشف عن مفاتيح شخصية مصطفى، الذي تختلط في أعماقه عاطفة البنوة بفحيح الشهوة، ويقر أيضًا بخطورة الدور الذي تلعبه المرأة، التي أيقظت إحساسه الأول بالجنس، في تشكيل وعيه وثقافته: «كانت تريدني أن أناديها باسمها الأول، اليزابيث، لكنني كنت أناديها باسم زوجها. تعلمت منها حب موسيقى باخ، وشعر كيتس، وسمعت عن مارك توين لأول مرة

منها. لكنني لم أكن أستمتع بشيء. وتضحك مسز روبنسن وتقول لي: ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبدًا؟».

الإلحاح على هيمنة العقل الجاف هو جوهر تقييم اليزابيث لشخصية مصطفى، واللافت للنظر أن إحساسها الكامن، الصحيح، بأنه يشتهيها، لا يؤثر على استمرار عاطفتها الأمومية نحوه، وعند مغادرته مصر لمواصلة رحلة التعليم في لندن، يتجلى تأثير رحيله في مشهد الوداع: «كانا على الرصيف حين أقلعت بي الباخرة من الإسكندرية. ورأيتها من بعيد وهي تلوح لي بمنديلها، ثم تجفف به الدمع من عينيها».

في مرحلة تالية غير محددة التاريخ، تغادر اليزابيث بدورها عائدة إلى انجلترا، فهي تكتب للراوي عندما يراسلها بعد موت مصطفى سعيد غرقًا: «إنني أعيش هنا وحيدة في آيل أف وايت. وقد سافرت إلى القاهرة في يناير الماضي وزرت قبر زوجي. كان ركي يحب القاهرة حبًا عظيمًا وقد شاء القدر أن يُدفن في المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم».

الزوج الراحل روبنسن، الذي تدلله باسم ركي، والراحل مصطفى سعيد، موزي، هما العلاقتان الأهم في حياة اليزابيث، وعنهما تنهمك في تأليف كتاب يكشف عن إنجازاتهما وما قدماه من عطاء يستحق الاهتمام والإشادة، أو كما تقول في رسالتها: «إنني أشغل نفسي بتأليف كتاب عن حياتنا- ركي وموزي وأنا- كانا رجلين عظيمين، كل بطريقته. كانت عظمة ركي في قدرته على جلب السعادة للآخرين. كان سعيدًا بمعنى الكلمة، تفيض السعادة منه إلى كل من يتصل به. وكان لموزي عقل عبقري، ولكنه كان متهورًا. كان غير قادر على تقبل السعادة أو إعطائها، إلا لمن أحبهم وأحبوه حبًا حقيقيًا مثلي ومثل ركي. وأنا أحس أن الحب والواجب يحتم عليَّ أن أعرِّف الناس بقصة هذين الرجلين العظيمين. سيكون الكتاب في الواقع عن ركي وموزي، فأنا لم أفعل شيئًا يستحق الذكر».

يتجلى التواضع وإنكار الذات ساطعًا في تأكيدها على أن سجل حياتها لا يتضمن شيئًا يستحق الذكر، وحبها غير المحدود لمصطفى ذي العقل العبقري كما تقول، لا يحول دون إدراكها لسماته السلبية المهلكة، ذلك أن الموضوعية سلاح تتمسك به، فضلاً عن الأمانة المثالية التي تعني القيام بالواجب كاملاً دون تقصير: «ولعل موزي أخبرك أنه جعلني وصية على شئونه

في لندن. وقد تجمع شيء من المال من حقوق الطبع لبعض كتبه وترجمة بعضها سأحولها فورًا حين تخبرني بعنوان البنك الذي تريدني أن أحولها له».

لا تتضمن الرواية تفاصيل مشبعة عن طبيعة العلاقة الزوجية بين اليزابيث وروبنسن، والقليل الذي يمكن استنباطه ينم عن تجانس وتناغم وتوافق، لكن المرأة الأوروبية تحب مصطفى بصدق وترى أنه أغرب شخص بالنسبة لها وزوجها: «كان موزي أعز شخص بالنسبة لي ولزوجي. مسكين موزي. إنه كان طفلاً معذبًا. ولكنه أدخل على قلبي وقلب زوجي سعادة لا حد لها».

في محاكمة مصطفى سعيد، بعد جريمة القتل التي يرتكبها ضد زوجه جين مورس، تواظب اليزابيث على حضور الجلسات، وعلى صدرها يبكي بعد صدور الحكم بسجنه. لم تكن تحب زوجه التي قتلها، ولم تقصر في تحذيره من الزواج، ووفق رواية مصطفى نفسه فقد كانت حائط المبكى الأخير: «ويوم حكموا عليَّ في الأولد بيلي بالسجن سبع سنوات، لم أجد صدرًا غير صدرها أسند رأسي إليه. ربتت على رأسي وقالت: لا تبك يا طفلي العزيز».

يمتد حب اليزابيث إلى أسرة مصطفى بعد موته، وتكتب في رسالتها للراوي: «ما يخفف عني قليلاً ألم فقده أن أعلم أنه قضى السنوات الأخيرة من حياته سعيدًا بينكم وأنه تزوج زوجة طيبة وأنجب ولدين. بلغ حبي لمسز سعيد. إنها تستطيع أن تعتبرني أمًا. وإذا كان ثمة عمل أستطيع أن أؤديه لها وللطفلين العزيزين فقل لها. لا تتردد في الكتابة إليَّ. وكم أكون سعيدة لو أنهم جميعًا جاءوا وقضوا معي عطلة الصيف القادم».

صفاء استثنائي نادر، وقلب يتسع للحب بلا ضفاف، ولم يكن الحب من جانب واحد، ذلك أن مصطفى سعيدًا يبادلها الحب على طريقته التي تعكس ملامح شخصيته غير التقليدية، ويحتفظ لها في أعماقه بمكانة خاصة على الرغم من الاختلاط والاضطراب. في إحدى جولات صراعه مع جين مورس، قبل أن يقتلها، يشير إلى مصلاة من حرير أصفهان: «أهدتني إياها مسز روبنسن عند رحيلي من القاهرة. أثمن شيء عندي وأعز هدية على قلبي».

الاعتزاز بالهدية وصاحبتها لا يحول دون التضحية بالتذكار الغالي في سبيل إشباع الشهوة التي تسيطر عليه، وهنا يكمن الفارق الكبير بين اليزابيث ومصطفى، بين امرأة سوية معطاءة ورجل يجمع بين العبقرية والتهور!.

أم الراوي

امرأة قروية تقليدية، هامشية الوجود محدودة التأثير. بعد عودة الابن الراوي من بعثته الأوروبية، تلعب الدور المنوط بها في متابعة قيامه بالواجبات الاجتماعية المتراكمة خلال فترة غيابه، وهي مهام لا ينبغي التقاعس عنها: «كانت أمي لي بالمرصاد، تذكرني بمن مات، لأذهب وأعزي، وتذكرني بمن تزوج، لأذهب وأهنئ. جبت البلد طولاً وعرضًا معزيًا ومهنئًا».

مواساة أسرة الموتى وتهنئة المتزوجين، أكثر ما تنشغل به الأم وتقف بالمرصاد لابنها حتى لا يتخلى عن الأعراف والتقاليد المقدسة، وفي هذا الإطار الضيق ينحصر وجودها الروائي. لا تعاود الظهور مجددًا إلا بعد قتل ود الريس على يدي زوجه حسنة محمود، التي تنتحر بعد ارتكابها جريمة القتل وليدة الكراهية. مبالغة الابن في الاهتمام لا تروقها، ومن هنا المواجهة بينهما، ومصارحتها له بجملة المخاوف والهواجس التي تسكنها: «قالت أمي: لماذا تركت عملك وجئت؟.

قلت لها: الولدان. نظرت إليَّ برهة نظرة فاحصة وقالت: الأولاد أم أم الأولاد؟ ماذا بينك وبينها؟ جاءت لأبيك وقالت له بلسانها: قولوا له يتزوجني. يا للجرأة وفراغة العين. نساء آخر زمن. وكله كوم والفعل القبيح الذي فعلته كوم».

لاشك أن زيارة الابن تسعدها، لكنها لا تجد مبررًا مقنعًا لمجيئه بعد قتل حسنة لزوجها وما يقوله الراوي عن الواجب الذي يلتزم به تجاه ولدي المنتحرة، وهو الوصي عليهما، لا يبدو تفسيرًا مقنعًا. تستشعر الأم حبه الكامن للقاتلة الميتة، التي يحظى سلوكها غير المعهود بالاستهجان والرفض، ولا يحول غيابها عن المشهد بالموت دون الإصرار على إدانة فعلتها، فضلاً عن استنكار جرأتها وصراحتها في الإعلان عن رغبتها في الزواج من الابن الشاب المتزوج والأب، بديلاً للعجوز ود الريس. قتل الزوج جريمة لا يمكن تبريرها أو التماس الأعذار لها عند الأم، ذلك أن المرأة التقليدية المحافظة تقدس الأعراف والتقاليد، وتنتصر لحقوق الرجال غير المقيدة، أما النساء فلا سبيل أمامهن إلا الرضا والرضوخ.

□□□

ب

بكري

صديق مقرب للحاج أحمد، جد الراوي. عند مقارنته بود الريس وبنت مجذوب، فضلاً عن أحمد نفسه، يبدو باهت الحضور محدود التأثير. في وقفة الراوي عند باب دار جده، حيث جلسة سمر العجوز المعمر مع أصدقاء العمر، يقدم بشكل عفوي مفتاح شخصية بكري، معلقًا على الضحكات التي تصل إلى سمعه: «وضحكة بكري التي تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذي يكون موجودًا فيه».

لكل عضو في منظومة الأصدقاء خصوصيته وسمته المميزة اللصيقة به، لكن بكريًا يتأثر بمن حوله ولا يؤثر فيهم: «يجلس وحسب».

يشارك بكري في الحوار المتشعب بتعليقات محدودة موجزة فاترة، ومن ذلك ما يقوله في دهشة صادقة عندما تؤكد بنت مجذوب أن ود البشير هو أكثر أزواجها فحولة وقدرة على الإشباع الجنسي: «ود البشير الكحيان التعبان؟ كانت العنز تأكل عشاءه».

يميل الرجل إلى الاعتدال والتحفظ، ويتجلى ذلك بوضوح في نصيحته لود الريس عندما يشرع في زواج جديد: «النصيحة لله يا ود الريس. أنت لم تعد رجل زواج. إنك الآن شيخ في السبعين وأحفادك صار لهم أولاد. ألا تستحي، لك كل سنة عرس؟ الآن يلزمك الوقار والاستعداد لملاقاة الله سبحانه وتعالى».

obeikandl.com

يسخر ود الريس من النصيحة التي لن يعمل بها: «ماذا يفهمك أنت في هذه الأمور؟»، وسرعان ما يتحول إلى الهجوم المضاد متهكمًا على بكري الذي يقنع بزوجة واحدة ولا يتزوج بعد وفاتها، وصولاً إلى الكشف عن الاهتمام الوحيد في حياة صاحبه: «أنت يا بكري مشغول في جمع المال إلى أن يريحك منه الموت»!.

في إطار الاعتدال الذي يلتزم به بكري، يرى أن الختانة من شروط الإسلام، والنساء عنده متشابهات. رؤيته هذه تنم بالضرورة عن خبرة محدودة بالجنس: «أنت يا ود الريس مجنون. رجل كبير لكن ما عندك فهم. النسوان نسوان في مصر أو السودان أو العراق أو واق الواق. السوداء والبيضاء والحمراء كلهن سواسية.

ولم يستطع ود الريس من شدة دهشته أن يقول شيئًا. ونظر إلى بنت مجذوب كأنه يستنجد بها».

لا مغامرات نسائية في حياة الرجل الهادئ الذي يبدو واضحًا أنه لا يهتم إلا بالعمل وجمع المال، وعلى النقيض من ود الريس وبنت مجذوب، لا يرى في الجنس متعة خارقة تستدعي التنظير والتمييز بين أصناف النساء. ردود فعله متزنة عاقلة بعيدة عن الإسراف والتطرف، والخروج عن هذه القاعدة هو الاستثناء الذي يستحق الرصد: «وارتفع ضحكهم جميعًا، حتى بكري الذي كان من قبل يضحك بهدوء».

لا يحول تحفظ بكري على زواج صديقه ود الريس دون حضور الاحتفال المحدود بعقد الزواج، ولا يشارك معه إلا صفوة الأصدقاء: الحاج أحمد وبنت مجذوب، وتفضي الزيجة إلى مأساة قتل العريس السبعيني وانتحار زوجه الشابة أرملة مصطفى سعيد. لأن بكريًا من الحريصين على الستر في العلاقة الجنسية، فإنه يحتج على صرخات العريس متوهمًا أنها تعبير عن فرط الشعور باللذة الجنسية، بعد امتناعها عن الزوج الشبق لأسبوعين متتاليين: «يا راجل اختشي على دمك. لازم تعمل لك فضيحة وهلولة».

لم يكن يعرف أن جريمة قتل وواقعة انتحار يشهدها البيت المجاور لبيته، ولعل هذه الغفلة المبررة هي ما تدفع عبد الكريم إلى توبيخ بكري بعد أن ينتهي كل شيء: «عمك عبد الكريم اشتبك مع بكري دون سبب. قال له: يحصل ذبح بجوارك وأنت نائم؟».

ليس منطقيًا أن يُلام بكري أو يُتهم بالغفلة، فلم يكن وحده النائم، ولا أحد في القرية كلها يستوعب وقوع جريمة غير مسبوقة كهذه، فكيف له أن يتدخل لإيقافها؟!.

بنت مجذوب

امرأة تقارب السبعين، طويلة لونها فاحم مثل القطيفة السوداء، وتحتفظ ببقايا جمال قديم. تنبئ أحداث الرواية عن أنها من أعلام وعلامات القرية الصغيرة، وتقترن شهرتها ومكانتها بما يصدر عنها من أحاديث جنسية صريحة جريئة يتسابق الرجال والنساء لسماعها، فضلاً عن تسلحها بمنظومة سلوك غير تقليدي، يجعل منها شخصية استثنائية متفردة ذات حضور ساحر وجاذبية آسرة: «وكانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل. ويُقال إن أمها كانت ابنة أحد سلاطين الفور. وقد تزوجت عددًا من خيرة رجال البلد، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة ليست قليلة. وقد أنجبت ولدًا واحدًا وعددًا لا يُحصى من البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن في الحديث، مثل أمهن».

مقولتها المبكرة للراوي، عند استقباله بعد عودته من بعثته الدراسية الأوروبية، تكشف عن الاهتمام الطاغي بالجنس وقضاياه: «خفنا أن تعود إلينا بنصرانية غلفاء»، أما واقعة طلاق ابنتها آمنة، وهي قصة أقرب إلى الكوميديا السوداء، فتشير إلى ما تتسم به من قسوة جارحة فجة، تخالطها الوقاحة المستفزة وتخلو من مراعاة القواعد والأعراف الاجتماعية واجبة الاحترام، فهي لا تتورع عن مخاطبة ابنتها في مواجهة الزوج، الذي لم تكن راضية عنه منذ البدء: «يا آمنة. هذا الرجل لم يقصر في حقك. فمسكنك حسن وملبسك حسن؛ وقد ملأ يديك ورقبتك ذهبًا. ولكن لا يبدو على وجهه أنه يقدر على إشباعك في الفراش. فإذا أردت الشبع الصحيح فأنا أعرف لك زوجًا إذا جاءك لا يتركك حتى تزهق روحك»!.

تفضي كلماتها الموجعة الصادمة هذه إلى الطلاق السريع وليد الغضب المبرر لزوج ابنتها، الكريم المضياف الذي لا يؤخذ عليه شيء، أما مشاركتها في جلسة السمر التي تنعقد في بيت الحاج أحمد، بحضور عدد من أعيان وكبار القرية، فتبرهن على وفرة تجاربها الجنسية العريضة

مع أزواجها الكثيرين، ما يكسبها خبرة تقفز بها إلى مرتبة المرجع المعتمد في قضايا العلاقات الجنسية. يتساءل الحاج أحمد: «سمعنا أن غنج بنت مجذوب لا يتصوره العقل»، وعندئذ تشعل سيجارة تمهيدًا للانطلاق في حديث مكشوف لا متسع فيه للحياء والحرج: «عليَّ الطلاق يا حاج أحمد، كنت حين يرقد زوجي بين فخذي أصرخ صراخًا تجفل منه البهائم المربوطة في مراحها في الساقية».

من منطلق التقييم الجنسي لأزواجها، ترى أن ود البشير هو الأقوى والأكثر فحولة، دون نظر إلى مظهره الباهت الواهن الذي يوحي للآخرين بالتعب والضعف ومحدودية القدرة، ومفرداتها في وصف علاقتهما الجنسية تتوافق مع شهرتها المدوية في ساحة الصراحة غير المقيدة بخطوط حمراء: «عليَّ الطلاق، كان عنده شيء مثل الوتد حين يدخله في أحشائي لا أجد أرضًا تسعني. كان يرفع رجلي بعد صلاة العشاء، وأظل مشبوحة حتى يؤذن أذان الفجر. وكان حين تأتيه الحالة يشخر كالثور حين يُذبح وكان دائمًا حين يقوم من فوقي يقول: هالله الله يا بنت مجذوب. فقال لها جدي: لا عجب أنك قتلته في عز الشباب. فضحكت بنت مجذوب وقالت: قتله أجله. هذا الشيء لا يقتل أحدًا».

بنت مجذوب عجوز ثرية مرحة، تتشبث بالحياة في عفوية صافية لا تعرف الحسابات المعقدة، ولاشك أن تقدمها في العمر يمنحها المزيد من التحرر، ذلك أنها في مرحلتها السنية هذه لا تنتمي إلى عالم النساء إلا تجاوزًا، وينظر إليها مجالسوها كأنها رجل مثلهم. في هذا السياق، تعقد بنت مجذوب مقارنة جريئة مع نساء الغرب، ولا تعليق على تحليلها إلا الضحك: «حريم النصارى لا يعرفن لهذا الشيء كما تعرف له بنات البلد. نساء غلف، الحكاية عندهن كشرب الماء. بنت البلد تعمل الدلكة والدخان والريحة وتلبس الفركة القرمصيص. وحين ترقد على البرش الأحمر بعد صلاة العشاء وتفتح فخذيها، يشعر الرجل كأنه أبو زيد الهلالي. الرجل الماعنده همة يصبح له همة».

امرأة تفوق الرجال جرأة وصراحة وقدرة على اقتحام الموضوعات الشائكة المسكوت عنها، وحواراتها مع ود الريس، المولع بالجنس والنساء إلى درجة الجنون، تمثل ذروة الإثارة في الأحاديث الصريحة التي لا تكون إلا بين رجلين صديقين: «أنت تفلح في الكلام. ولابد

أنك تجري وراء النساء لأن بضاعتك مثل عقلة الأصبع. فقال ود الريس: لو كنت تزوجتني يا بنت مجذوب لوجدت شيئًا مثل مدافع الإنكليز. فقالت بنت مجذوب: المدافع سكتت وقت مات ود البشير. أنت يا ود الريس رجل مخرف، عقلك كله في رأس ذكرك، ورأس ذكرك صغير مثل عقلك».

لا تعترف بنت مجذوب بوجود المحاذير والخطوط الحمراء التي لا ينبغي تجاوزها، ولا حرج عندها في الإشارة الصريحة الفجة إلى رأس الذكر الصغير والمقارنة مع «مدافع الإنكليز»، ففي مسامرات الأصدقاء لا تكلف أو مراعاة لحواجز وهمية تفصل بين رفاق العمر الذين يقتربون من محطة النهاية في رحلة الحياة.

من ناحية أخرى، تحتفظ المرأة العجوز بقدر كبير من الحيوية، وتتمتع بصحة جيدة تفوق مرحلتها العمرية، وهو ما يتجلى بوضوح عند نهاية الجلسة والتهيؤ للمغادرة: «وهبت بنت مجذوب واقفة دفعة واحدة، كما يهب رجل في الثلاثين، وانتصبت بطولها، معتدلة القامة، لا انحناء في الظهر ولا تقوس في الكتفين».

يحمل الراوي كثيرًا من مشاعر المودة والإعجاب تجاه بنت مجذوب، وليس غيرها من يلجأ إليه لمعرفة التفاصيل التي يضن بها الجميع عن واقعة قتل ود الريس وانتحار زوجه المتمردة الكارهة حسنة محمود، وهو يعرف المدخل الوحيد الصحيح الذي يدفعها إلى البوح والثرثرة: «حملت زجاجة الوسكي في جيبي وذهبت إلى بنت مجذوب. إذا لم تقل لي بنت مجذوب فلن يقول لي أحد. وصبت بنت مجذوب من الزجاجة في إناء كبير من الألمون، وقالت: لابد أنك تريد شيئًا. نحن لا نعرف هنا مثل خمر المدن هذه».

تشرب بنت مجذوب. فتحكي كل ما يتطلع الراوي إلى معرفته والإحاطة به عن وقائع الجريمة النكراء غير المسبوقة، وتختلط روايتها للأحداث المثيرة مع التحليل والتقييم الذي يعبر عن رؤيتها الخاصة للزيجة المفضية إلى الكارثة غير المعهودة في القرية الصغيرة المحكومة بقواعد أخلاقية وأعراف اجتماعية صارمة، لا يسهل التمرد عليها والاستهانة بها: «هذه مصيبة كبيرة حصلت في البلد. طول حياتنا تحت ستر الله. آخر الزمن يحصل علينا مثل هذا. أستغفرك وأتوب إليك يا رب».

بنت مجذوب قوية لا تعرف الضعف الشائع عند النساء، لكن البكاء مبرر بالنظر إلى هول المشهد الذي تعاينه بشكل مباشر، وتستعيده فيفجر في أعماقها حزنًا وشجنًا. لا تعارض بين إدمانها للصراحة الفجة وبروز الحس الإنساني الذي يصطدم بالدم ولعنة الانتقام بالغ القسوة: «منظر لا أراك الله مثله يا ولدي، يفطر القلب، يشيب الوليد. وكله بلا سبب ولا طلب. إنها قبلت الرجل الغريب، لماذا لم تقبل ود الريس؟».

العجوز الجريئة المرحة، تحمل في أعماقها قلب طفل وبراءة البسطاء من الناس، أولئك الذين ينشدون الستر. قد ينفسون بالكلمات الصريحة الموجعة، لكنهم لا يفكرون في الأذى ولا يطيقونه.

❐❐❐

obeikandl.com

ح

حسنة محمود

زوجة وأرملة مصطفى سعيد، وأم ولديه محمود وسعيد. يتحفظ أحمد، جد الراوي الذي يقترب من معانقة عامه التسعين، على تسرع أبيها بقبول الزواج من الغريب الوافد مجهول الجذور: «تلك القبيلة. لا يبالون لمن يزوجون بناتهم»، لكنه يشيد بمصطفى نفسه بعد ملاحظته السلبية هذه، ويراه رجلاً صالحًا ملتزمًا، لا شيء يعيبه أو يؤخذ عليه!.

بعد موت مصطفى سعيد غرقًا، يقول الراوي لأرملته حسنة: «هل أحببت مصطفى سعيد؟»، وتأتي إجابتها السريعة أقرب إلى الصياغة التقليدية التي تتشبث بالحفاظ على المقاييس والمعايير المحافظة: «كان أبًا لأولادي»، ثم تضيف: «كان زوجًا كريمًا وأبًا كريمًا. طول حياته لم يقصر معنا».

قبل موته بفترة قصيرة، يكتب مصطفى رسالة موجهة إلى الراوي، قريب العهد بمعرفته، تتضمن رغبته في أن يكون وصيًا على زوجه وابنيه: «إنني أترك زوجتي وولدي وكل مالي من متاع الدنيا في ذمتك، وأنا أعلم أنك ستكون أمينًا على كل شيء. زوجتي تعلم بكل مالي، وهي حرة التصرف. إني واثق بحكمتها. ولكنني أطلب منك أن تؤدي هذه الخدمة لرجل لم يسعد بالتعرف إليك كما ينبغي».

يشيد مصطفى سعيد بزوجه وحكمتها ورجاحة عقلها في صياغة متزنة لا تميل إلى المبالغة

obeikandl.com

والإسراف الانفعالي، وهو المنهج نفسه الذي تتبعه الأرملة في الرد على تساؤل الراوي عن حبها للزوج الراحل. الاحترام متبادل، والمودة العميقة قائمة، ومخاوف حسنة قبل ساعات من موته تنبئ عن تعلقها به وقلقها من مخاطر الفيضان القوي المخيف: «في ذلك اليوم توسلت إليه ألا ينزل إلى الحقل والدنيا فيضان وغرق. كنت خائفة. لكنه قال لا داعي للخوف و إنه يجيد السباحة. كنت متوجسة طول اليوم وزاد خوفي حين تأخر عن ميعاده. وانتظرنا، ثم كان ما كان».

لا ينتمي مصطفى إلى القرية، وتاريخه غامض مجهول. لا تخفي حسنة إحساسها بأنه كان يكتم عنها أشياء لا تستطيع تخمينها: «أحيانًا بالليل في النوم كان يقول كلامًا.. بالرطانة. كان يردد في نومه كلمات.. مثل جينا، جيني.. لا أدري»!.

لا يبوح لها مصطفى بالمخبوء من أسراره، ولا تلح هي في السؤال بحثًا عن المعرفة، بل إنها طيلة سنوات الزواج لم تدخل غرفته الخاصة المزدحمة بالكتب والأوراق والتذكارات. لا يعني هذا كله غياب الحب والثقة، فالعلاقة الزوجية محترمة متزنة، يلتزم طرفاها بالحقوق والواجبات في إطار عملي متحضر، وليس أدل على فرط تعلق حسنة بالزوج الراحل من امتناعها عن الزواج بعد رحيله، و إصرارها العنيد على رفض كل المتقدمين لها، وهو موقف راسخ لا يتغير إلا بالضغط العنيف الذي يجبرها على الزواج من العجوز ود الريس، وصولاً إلى مأساة القتل المزدوج، تقتله وتنتحر!.

يقول الجد أحمد لحفيده الوصي: «ود الريس لايزال شابًا، وهو صاحب مال. وعلى أي حال المرأة يلزم لها الستر. ثلاثة أعوام مرت على وفاة زوجها. ألا تريد الزواج أبدًا؟».

يتكلم الجد باسم تقاليد وقيم وأعراف المجتمع، و يرى في امتناع حسنة عن الزواج سلوكًا لا يمكن قبوله واستيعابه. في هذا السياق، يطلب وساطة حفيده لإقناعها لأنها تثق فيه، فضلاً عن أنه الوصي المؤتمن.

لا يرحب الراوي في أعماقه بمشروع زواج حسنة وود الريس، لكنه يعرض عليها الأمر في حياد موضوعي لا يوحي فيه بالرفض أو القبول، مسلحًا في كلماته بالمنظور الاجتماعي المهيمن في البيئة الذكورية المحافظة التي ينتميان إليها: «التعلق بالماضي لا ينفع أحدًا. عندك

الولدان، وأنتِ مازلت شابة في مقتبل العمر. فكري في المستقبل. ومن يدري، لعلك تقبلين واحدًا من الخطاب العديدين الذين يطلبونك.

أجابت فورًا، بحزم، الأمر الذي أدهشني: بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل.

ولم أكن أنوي أن أقول لها ذلك، ولكنني قلت: «ود الريس يريد زواجك، وأبوك وأهلك لا يمانعون. كلفني أن أتوسط له عندك.

وصمتت فترة طويلة حتى ظننت أنها لن تقول شيئًا، وفكرت أن أقوم وأذهب. وأخيرًا أحسست بصوتها في الظلام كأنه نصل: إذا أجبروني على الزواج، فإنني سأقتله وأقتل نفسي».

ما يقوله الراوي، دون اقتناع، تجسيد للسائد المستقر في الواقع، ومرتكزاته تدور حول رعاية الابنين وشباب الأرملة وتأمين المستقبل، وفي رد حسنة يظهر الاعتزاز بالزوج الراحل الذي لن تجد له مثيلاً. الموقف الصارم الذي تتخذه يتجاوز شخصًا بعينه، مثل ود الريس، إلى المبدأ العام في ذاته، والجدير بالاهتمام في كلماتها هو التهديد بالقتل المزدوج حال إجبارها على الزواج قهرًا، وهو ما يتحقق بالفعل!.

إصرار الأرملة الشابة على رفض الزواج يفضي إلى استياء شامل، يرى في سلوكها غير المألوف خرقًا للسائد المستقر من الأعراف والتقاليد المقدسة، التي تلزم المرأة بالطاعة العمياء، ولعل محجوبًا، صديق الراوي والزوج الراحل معًا، هو صاحب الصيغة الأدق والأفضل في التعبير عن طبيعة المجتمع الذكورى الذي لا يقيم للمرأة واختيارها وزنًا: «أنت تعرف نظام الحياة هنا. المرأة للرجل، والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل العمر».

يتحدث محجوب في إطار موضوعي يرصد المبدأ الذي يذعن له الجميع ولا يحق لأحد الخروج عليه، أما ود الريس فإنه يتجاوز الموضوعي إلى الذاتي، ويوجه اتهامًا قاسيًا للراوي نفسه، ملمحًا إلى علاقة مريبة تجمعهما: «اسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج. أنت السبب. لاشك أن بينك وبينها شيئًا. ما دخلك أنت؟ أنت لست أباها ولا أخاها ولا ولي أمرها. إنها ستتزوجني رغم أنفك وأنفها. أبوها قبل وأخواتها قبلوا. الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في المدارس لا يسير عندنا. هذا البلد فيه الرجال قوامون على النساء».

في هذا المناخ المتعنت، الذي يهدر حقوق المرأة وينتصر للرجل، لا يبدو مستغربًا أن تتعرض حسنة لضغوط عنيفة تفوق قدرتها على المقاومة والتشبث بالرفض: «أبوها قال إنه أعطى ود الريس وعدًا. عقدوا له عليها. أبوها شتمها وضربها وقال لها: تتزوجينه رغم أنفك».

الشتم والضرب، الإهانة المعنوية والمادية، أداتا الأب للحفاظ على كرامته والوفاء بالوعد الملزم الذي لا يمكن التراجع عنه، لكن رضوخ حسنة للزواج الورقي المفروض عليها لا يعني الاستسلام والخنوع عمليًا، ذلك أنها تمتنع عن منح جسدها للزوج العجوز الذي يشتهيها بجنون، ويصيبه تمردها بحيرة تدفعه إلى الشكوى العلنية الصريحة: «أقامت عنده أسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها. كانت.. كان في حالة لا توصف. كالمجنون. اشتكي لطوب الأرض. يقول كيف تكون في بيته امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولا يكون بينهما ما يكون بين الزوج وزوجته».

لم يكن حديث حسنة مع الراوي عن القتل المزدوج تهديدًا تنفيسيًا أو مبالغة بعيدة عن الجدية، فهي تترجم الكلمات النظرية إلى سلوك عملي، ومحاولة ود الريس للوصول إلى جسدها بالقوة هي الشرارة التي تشعل نيران الانتقام المروع الذي تحكي بنت مجذوب تفاصيله للراوي: «وجدت بنت محمود معضوضة ومخدشة في كل شبر من جسمها. بطنها. أوراكها. رقبتها. عض حلمة نهدها حتى قطعها. الدم يسيل من شفتها السفلى. لا حول ولا قوة إلا بالله. ود الريس مطعون أكثر من عشرة طعنات. طعنته في بطنه وفي صدره وفي محسنه. ولم تستطع بنت مجذوب أن تستمر. بلعت ريقها بصعوبة وارتعش حلقومها ثم قالت: اللهم لا اعتراض على حكمك. وجدناها على ظهرها والسكين مغروز في قلبها. فمها مفتوح، وعيناها تبحلقان كأنها حية. ود الريس لسانه مدلدل بين فكيه، وذراعاه مرفوعتان في الهواء».

تفاصيل اللوحة الدموية تؤكد محاولة الاغتصاب التي يقوم بها ود الريس، وتكشف عن مقاومة حسنة التي تتحول من الدفاع إلى الهجوم. الإصابات العديدة في جسدها تنم عن عنف العجوز وقسوته المفرطة، والطعنات العشر تكشف عن غل حسنة وكراهيتها والإصرار حتى النهاية على الامتناع عن علاقة جنسية لا تقبلها وتأبى الرضا قهرًا.

في حياتها وموتها، يقسو المجتمع التقليدي المحافظ على حسنة، ويأبى رموز القرية وقادتها إلا إدانتها بلا هوادة، ولا شيء يطول الزوج العجوز إلا أدعية الرحمة والمغفرة!.

الجد أحمد، بكل تدينه الصادق وتسامحه وحكمته، يحمِّل حسنة كامل المسئولية، ويتحامل عليها بلا ذرة من التعاطف: «أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا البلد منذ خلقه الله. محن آخر الزمن».

لا يتطرق أحمد بكلمة واحدة إلى أسباب وجذور الجريمة، ولا يتحمل ود الريس عنده شيئًا من مسئولية النهاية المأسوية، ذلك أنه يراه ضحية وليس جانيًا: «تلك القبيلة لا يجيء من ورائها إلا الشر. قلت لود الريس: هذه المرأة شؤم. ابعد عنها. إنما الأجل..».

الإدانة الشاملة تطول حسنة وقبيلتها، المسئولة بالضرورة عن شرورها، ولا تتوانى بنت مجذوب، المرأة الجريئة المولعة بالجنس وأحاديثه المثيرة الصريحة، عن استنكار الواقعة غير المسبوقة، ولا تهتم أيضًا بالملابسات والدوافع: «الفعل الذي فعلته بنت محمود لا يجري به اللسان. شيء ما رأينا ولا سمعنا بمثله لا في الزمن السابق ولا اللاحق».

العجوز الحكيم والمرأة الشبقة متفقان في الرؤية ذات المنطلقات الاجتماعية، والراوي وحده من يتعاطف مع القاتلة القتيلة، مسلحًا في موقفه الاستثنائي هذا بثقافته الغربية وتقييمه الموضوعي المستنير الذي يتكئ على معطيات نظرية لا وجود لها في الواقع الفعلي. ردًا على اتهام محجوب للمرأة بالجنون، يدافع الراوي باستماتة وهو يقاوم رغبة البكاء: «حسنة لم تكن مجنونة. كانت أعقل امرأة في البلد. أنتم المجانين. كانت أعقل امرأة في البلد. وأجمل امرأة في البلد. حسنة لم تكن مجنونة».

الدفاع الحار، في جانب كبير منه، وثيق الصلة بالحب الذي يسيطر عليه ولا يبوح به. لأنه الوصي المؤتمن من قبل الزوج الراحل، فإنه يجالسها ويراها عن قرب ويتحدث معها، وينعكس إعجابه على وصفه لملامحها الشكلية وشخصيتها القوية المستقلة. هل يليق بامرأة جميلة متميزة مثلها أن تكون زوجة لعجوز مثل ود الريس؟!: «هذا هو القربان الذي يريد ود الريس أن يذبحه على حافة القبر، ويرشي به الموت فيمهله عامًا أو عامين».

حبه كامن لا يبوح به لأحد، لكن صديق العمر محجوب يقترح عليه أن يتزوجها: «أنا متأكد أنها ستقبل. أنت وصي على الولدين، وبالأحرى أن تتم الموضوع وتصبح أبًا».

اقتراحه هذا لا ينبع من معرفته بحب الراوي لحسنة، لكنه تعبير عن هيمنة التقاليد الموروثة التي لا ترى في تعدد زيجات الرجل ما يشين أو يسيء: «لا تقل لي إنك زوج وأب. الرجال يتزوجون على زوجاتهم كل يوم. لن تكون أولهم ولا آخرهم».

يعترف الراوي لنفسه أنه يحبها، ولا شك أنها سترحب به زوجًا، فلا وجه للمقارنة مع ود الريس، وهو البديل الأفضل إذا لم يكن من الزواج بد. بعد موتها، يعرف أنها تبادر بزيارة صديقه محجوب لتعرض عليه الفكرة، وسيلة وحيدة متاحة للإفلات من الضغوط القاسية التي تتعرض لها: «حين راح لها أبوها وشتمها جاءتني في البيت مع شروق الشمس. قالت تخلصها من ود الريس وزحمة الخطاب. فقط تعقد عليها. لا تريد منك شيئًا. قالت يتركني مع ولدي، ولا أريد منه قليلاً ولا كثيرًا».

خطوة شجاعة جريئة كهذه دليل على تفرد المرأة واختلافها الجذري عن نساء المرحلة التاريخية، وإذا لم تكن رغبتها في الزواج من الراوي مردودة إلى الحب، فهي تعبير عن الارتياح الذي يقود بالضرورة إلى الحب. سلوكها مدان من أم الراوي، فهي لا تغفر لحسنة جرأتها، ولا يفلح الموت في النسيان والغفران: «جاءت لأبيك وقالت له بلسانها: قولوا له يتزوجني. يا للجرأة وفراغة العين. نساء آخر زمن».

حسنة محمود امرأة قوية متوافقة مع نفسها، ذات نزعة استقلالية لا يرحب بها المجتمع المحافظ. زوجة صالحة، وأرملة محترمة ملتزمة، وأم حانية، أما فعلها الموصوف بـ»القبيح» فإنه وليد تفاعلات معقدة يشارك المجتمع في صناعتها، بالانتصار للرجال دون النساء، والانحياز لعجوز مثل ود الريس دون التفات إلى حق المرأة الرشيدة في اتخاذ قرارها.

يتساءل الراوي، وهو يقلّب في أوراق مصطفى سعيد: «لماذا قتلت حسنة بنت محمود ود الريس الشيخ وقتلت نفسها في هذه القرية التي لا يقتل أحد فيها أحدًا؟».

ليس من إجابة نهائية حاسمة، ويزداد الأمر تعقيدًا بالنظر إلى وفرة النساء من ضحايا

مصطفى، فهل يمكن القول إن حسنة ضحية أخيرة له بعد موته؟!: «لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال. وأنا أحس بالمرارة والحقد، فبعد هؤلاء الضحايا جميعًا، توج حياته بضحية أخرى، حسنة بنت محمود، المرأة الوحيدة التي أحببتها، قتلت ود الريس المسكين وقتلت نفسها من أجل مصطفى سعيد».

أهي ضحية للزوج، أم أنها تسير على دربه وتحتذيه؟!. الأدق الأكثر مصداقية أن حبها الكبير له، حيًا وميتًا، يقودها إلى القتل والانتحار، ذلك أنها لا تتخيل رجلاً غيره في حياتها.

obeikandl.com

obeikandl.com

ر

الراوي

صانع ومشَّكل البناء الروائي، وكما هو الحال في «سباق التتابع» حيث ثنائية تسليم الراية وتسلمها، يمكن القول إنه امتداد مصطفى سعيد على نحو مختلف، يليق بمرحلة جديدة لا يمكن أن تكون استنساخًا و إعادة إنتاج ميكانيكي لما يسبقها من مراحل، ووفق التعبير الذي يستخدمه الراوي نفسه في مقارنة دالة: «إنني أبتدئ من حيث انتهى مصطفى سعيد، إلا أنه على الأقل قد اختار وأنا لم أختر شيئًا».

تبدأ أحداث الرواية بعودة الراوي إلى قريته بعد نهاية البعثة الدراسية الأوروبية التي تمتد سبع سنوات متصلة، يحصل خلالها على درجة الدكتوراه في الشعر الإنجليزي. لا تترك الغربة الطويلة آثارًا سلبية تطول انتماءه إلى الجذور التي يتشبث بها ويعتز، فهو مسكون بحب الوطن والحنين إليه، سعيد بالاندماج مع الأرض والبشر: «عدت وبي شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل. سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتني حقيقة قائمة بينهم، فرحوا بي وضجوا حولي، ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجًا يذوب في دخيلتي، فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس. ذاك دفء الحياة في العشيرة، فقدته زمانًا في بلاد «تموت من البرد حيتانها»...»

الغربة ثلج وصقيع والوطن دفء ورحمة، والقرية الصغيرة ثرية بمشاعر الحب والمودة

دون نظر إلى الفقر المادي. هي معنى الوجود وسره، ففيها الأهل والأصدقاء ومفردات الطبيعة الحانية التي ترادف الخصوبة والتوهج الروحي، وتقود إلى متعة وروعة الانتماء والشعور بالقوة: «ونظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لاتزال بخير، أنظر إلى جذعها القوي المعتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة. أحس أنني لست ريشة في مهب الريح، ولكنني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل، له جذور له هدف».

مشاعره الجياشة المتدفقة لا تقود إلى التعصب والتقوقع، ولا تعني الصدام مع الغرب والنفور منه والتحايل عليه واتهامه بما ليس فيه، ذلك أن وحدة الوجود الإنساني تمثل عقيدة راسخة عند الراوي الذي لا يعرف التطرف المقيت وليد النظرة الأحادية ضيقة الأفق، التي ينجو منها ولا يقترب. إنه يرى الأوروبيين، باستثناء فوارق ضئيلة يمكن استيعابها، بشرًا عاديين مثل أبناء قريته، يتزوجون ويربون أولادهم وفق منظومة القيم التي تحكمهم. فيهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم: «وآثرت ألا أقول بقية ما خطر على بالي: مثلنا تمامًا. يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلامًا بعضها يصدق وبعضها يخيب. يخافون من المجهول، وينشدون الحب، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد. فيهم أقوياء، وبينهم مستضعفون، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق، وبعضهم حرمته الحياة. لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء».

لاشك أن الاختلاف قائم بين الشرق والغرب على الصعيد المادي، ولاشك أيضًا أن التباين الثقافي والحضاري حقيقة لا يمكن إهمالها أو إنكارها، لكن البطولة الحقيقية للإنسان الذي يعرف الحب والألم والخوف، ويحلم ويتطلع إلى الأمان والاستقرار، وينتهي به الأمر إلى الموت شرقيًا كان أم غربيًا. مثل هذه الرؤية البعيدة عن التعصب تقوده إلى اعتناق فلسفة إنسانية صافية مبرأة من الكراهية والحقد، تراود الوصول إلى السر والمعنى الكامن في رحلة الوجود: «كنت أفكر، وأنا أرى الشاطئ يضيق في مكان، ويتسع في مكان، أن ذلك شأن الحياة، تعطي بيد وتأخذ باليد الأخرى».

يعود الراوي إلى عالمه القديم فلا يجد فيه جديدًا إلا مصطفى سعيدًا، الوافد الغريب

الذي يستوطن القرية قبل خمس سنوات. يستقر فيها ويبني بيتًا ويتزوج ويندمج في النسيج الاجتماعي العام، لكنه ينفرد بسلوك غريب ينعكس على لغته بالغة التهذيب، ومراعاته لقواعد وأعراف في التعامل لا وجود لها في قاموس القرية: «لم يغب عني أدبه الجم، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة. يدخلون في الموضوع دفعة واحدة، يزورونك ظهرًا كان أو عصرًا، لا يهمهم أن يقدموا المعاذير».

غياب طقوس المجاملة الرقيقة وهيمنة الغلظة والخشونة ليس بالملمح السلبي الذي يؤخذ على أبناء القرية البسطاء الصرحاء البعيدين عن التكلف وافتعال الرقة، ولا شيء أيضًا يؤخذ على مصطفى سعيد لأنه لا يتعمد الاختلاف بقدر ما أنه يتوافق مع المنظومة التي يتعود عليها عبر تجاربه التي لم يكن الراوي يعرف عنها شيئًا، ومن هنا يتساءل في حيرة حقيقية: «لماذا لا يترك هذا الأدب، ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجل، قال بعضهم لبعض: يا ابن الكلب».

تبدأ العلاقة بفضول من الراوي وتحفظ ملموس من مصطفى، ولا يستطيع حامل درجة الدكتوراه في الشعر الإنجليزي أن ينكر استياءه وضيقه من نبرة مصطفى التهكمية في التعليق على الدرجة العلمية التي ينالها بعد الاستغراق في دراسة شاعر إنجليزي مغمور: «نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر. لو أنك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب، لكان خيرًا. انظر كيف يقول «نحن» ولا يشملني بها، مع العلم بأن البلد بلدي، وهو – لا أنا – الغريب».

لا تنبع مقولة مصطفى، الأسبق في الحصول على الدكتوراه بعدة عقود، من رغبة في الإساءة والاستفزاز، ولا يراود الازدراء والتعالي. الأمر لا يتجاوز التعليق العفوي الذي يعبر عن رؤيته من الموقع الجديد الذي يحتله، مزارعًا يدرك الاحتياجات الحقيقية التي يتطلبها المجتمع المحلي الفقير، الذي يفتقد الأطباء وعلماء الزراعة والهندسة، ولن يفيد كثيرًا من دارسي الشعر الإنجليزي، لكن مصطفى نفسه في مجلس الشراب الذي يجمعه مع الراوي ومحجوب، يتحرر بالخمر فيتلو من الذاكرة شعرًا إنجليزيًا بصوت واضح ونطق سليم، ما يؤكد أن في حياته المجهولة من الأسرار والخبايا ما يغيب عن الجميع: «لو أن عفريتًا انشقت عنه الأرض فجأة، ووقف أمامي، عيناه تقدحان اللهب، لما ذعرت أكثر مما ذعرت. وخامرني، بغتة، شعور فظيع، شيء مثل الكابوس، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة، لم نكن حقيقة، إنما وهمًا من الأوهام».

بعد واقعة قراءة القصيدة، تتطور العلاقة بين الراوي ومصطفى سعيد، ويستمع منه في جلسة مطولة للكثير المجهول الذي يضيء بعض الجوانب الغامضة في شخصية الوافد الغريب صاحب التجارب الحافلة غير التقليدية. قبل موته غرقًا في موسم الفيضان العنيف، يكتب مصطفى رسالة يجعل فيها من الراوي وصيًا على ولديه والقليل الذي يملكه، ويمنحه الحق في دخول غرفته الخاصة التي تتيح محتوياتها المتنوعة استكمال الجوانب التي لا يعرفها عن حياته: «أنا أعلم أنك تعاني من رغبة استطلاع مفرطة بشأني، الأمر الذي لا أجد له مبررًا. فحياتي مهما كان من أمرها ليس فيها عظة أو عبرة لأحد. ولولا إدراكي أن معرفة أهل القرية بماضيَّ كان سيعوقني عن مواصلة الحياة التي اخترتها لنفسي بينهم، لما كان ثمة مبرر للكتمان».

التقارب السريع بينهما، بعد فترة قصيرة من التعارف، لا يعني التماثل والتشابه، ولابد من التأكيد على أن الدور الذي يلعبه مصطفى سعيد في حياة الراوي يقف في المنطقة الوسطى المراوغة المحيرة بين الحقيقة والوهم: «أحيانًا تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة أن مصطفى سعيد لم يحدث إطلاقًا، وأنه فعلاً أكذوبة، أو طيف أو حلم، أو كابوس، ألم بأهل القرية تلك، ذات ليلة داكنة خانقة، ولما فتحوا أعينهم مع ضوء الشمس لم يروه».

هواجس كهذه ليست إلا تعبيرًا عن حجم الصدمة التي تترتب على العلاقة القصيرة العميقة والموت المباغت والأسئلة المعلقة، لكن الأهمية الحقيقية تتمثل في الفارق الجوهري الخطير الذي يفصل بينهما في الموقف من الصراع الحضاري الذي يخوضه كل منهما بطريقة مغايرة: «هل كان من المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد؟ قال إنه أكذوبة؟ فهل أنا أيضًا أكذوبة؟ إنني من هنا. أليست هذه حقيقة كافية؟ لقد عشت أيضًا معهم، ولكنني عشت معهم على السطح، لا أحبهم ولا أكرههم. كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة».

خلال السنوات الطويلة لبعثته الدراسية، لم يذب الراوي في المجتمع الإنجليزي، قانعًا بالسطح الذي لا تتولد معه مشاعر المرارة ورغبة الصدام، فهو لا يحب ولا يكره، ويقبض على جمرة الانتماء الوطني ممثلاً في عشقه المزمن للقرية الصغيرة التي تعني الجذور والتماسك والصمود والقدرة على التقييم الموضوعي البعيد عن العنف والحدة والانفعال الزائد: «هناك

مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ. ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا، نبتت في دارنا، ولم تنبت في دار غيرها».

على هذا النحو تستقيم المعادلة المعقدة المرهقة، فلا أفضلية مطلقة هنا أو هناك، ولا حتمية للاختيار الذي لا موضع له، فهو من «هنا» ولا يعادي «هناك»، ويرى في الهم الإنساني مشتركًا وأداة للتوحيد. لا ينفي التناقض والتعارض والتباين، لكنه يروض الاندفاع غير المحسوب. نهاية مصطفى سعيد تتويج منطقي لحياته الحافلة بالتحولات: «إذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية، فإنه يكون قد قام بأعظم عمل ميلودرامي في رواية حياته. وإذا كان الاحتمال الآخر هو الصحيح، فإن الطبيعة تكون قد منت عليه بالنهاية التي كان يريدها لنفسه».

لا تبدأ حياة الراوي بظهور مصطفى سعيد، ومن المنطقي ألا تنتهي بغيابه، القضية لا تكمن في موت مصطفى غرقًا قدريًا أو انتحارًا عمديًا، فالحياة تستمر بعد رحيله، والأكاذيب التي يتم تداولها حوله بمثابة الدليل العملي الساطع على هيمنة الخلل الذي يجعل من الوصول إلى الحقيقة واليقين طموحًا مستحيلاً. يؤكد المحاضر الجامعي منصور أن مصطفى سعيدًا مليونير يعيش كاللوردات في الريف الإنجليزي، وعندئذ يندفع الراوي دون وعي لينفي بالأرقام الدقيقة كل الأقاويل المرسلة بلا دليل: «مصطفى سعيد ترك، بعد موته، ستة أفدنة، وثلاث بقرات وثورًا، وحمارين، وإحدى عشرة عنزة، وخمس نعجات، وثلاثين نخلة، وثلاثًا وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحراز، وخمسًا وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال، وتسعة أرادب قمح وتسعة ذرة، وبيتًا مكونًا من خمس غرف، وديوان، وغرفة واحدة من الطوب الأحمر، مستطيلة الشكل، ذات نوافذ خضراء، سقفها ليس مسطحًا كبقية الغرف، ولكنه مثلث كظهر الثور، وتسعماية وسبعة وثلاثين جنيهًا وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقدًا».

أي مليونير يخلِّف وراءه مثل هذا الميراث الضئيل المتواضع؟!، ومن أين يستمد منصور معلوماته المختلقة المغلوطة التي تتحول عنده إلى حقائق يقينية راسخة لا يطولها الشك؟!. الأرقام التي يذكرها الراوي بدقة متناهية هي حصيلة عمر مصطفى سعيد عبر مراحل حياته المليئة بالتحولات والمفارقات، وشعور الراوي بالواجب تجاه الصديق الراحل هو دافعه للانطلاق العفوي دفاعًا عن الرجل الذي لم تدم صداقتهما طويلاً، لكنه يترك في نفسه أعمق

الأثر، فهما عضوان في «فريق التتابع» الذي يخوض المباراة المصيرية لإعادة اكتشاف الواقع من ناحية وتحديد طبيعة العلاقة مع الفريق المنافس من ناحية أخرى: «نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي، فلاحون فقراء، ولكني حين أعانق جدي أحس بالغنى، كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه. إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب، ولكنه كشجيرات السيال في صحارى السودان، سميكة اللحى حادة الأشواك، تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة».

الجد أحمد، العجوز المعمر الذي يعانق عامه التسعين، يحتل في قلب حفيده الراوي مكانة فريدة تتجاوز رابطة القرابة والدم، فهو رمز جليل جميل للخصوصية الحضارية التي ينبغي التشبث بها والإصرار على استمرارها. يمنحه الشعور بالرسوخ والقوة والأمان، ويضفي على الحياة معنى ومذاقًا، وينهض دليلاً على الإرادة العنيدة التي تتحدى كل العقبات والمعوقات. لا يحق للغرب أن يباهي بعلمه وتقدمه الصناعي، ويتهم الآخرين بالفقر والتخلف. الأمور نسبية، والمفاهيم مراوغة لا يمكن الإمساك بها، واتهامات الاستعماري المتعصب رتشارد بهيمنة الخرافات بعد رحيل الاستعمار، خرافات مثل التصنيع والتأميم والوحدة العربية والأفريقية، يمكن الرد عليها باتهام مضاد قوامه سيطرة الخرافات على النظام الذي يباهي به: «لعلنا نؤمن بالخرافات التي ذكرها، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة، خرافة عصرية، هي خرافة الإحصائيات. ما دمنا سنؤمن بإله، فليكن إلهًا قادرًا على كل شيء. أما الإحصائيات! الرجل الأبيض، لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخنا، سيظل أمدًا طويلاً يحس نحونا بإحساس الاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف. مصطفى سعيد قال لهم: إنني جئتكم غازيًا. عبارة مليودرامية ولاشك. لكن مجيأهم، هم أيضًا، لم يكن مأساة كما نصور نحن، ولا نعمة كما يصورون هم. كان عملاً مليودراميًا سيتحول مع مرور الزمن إلى خرافة عظمى».

تمام الحكمة أن يكون التقييم موضوعيًا معتدلاً لا يعرف الانحياز المتعصب أحادي النظرة، ذلك أن المباراة ليست بين الملائكة والشياطين، واختزال العلاقة المتشابكة المعقدة في ثنائية «النعمة» و«النقمة» يفضي إلى نتائج كارثية مغلوطة. يتحمل الاستعمار مسئولية العديد من المصائب والأزمات المدمرة، لكن السادة الحكام الجدد من أبناء الوطن ليسوا أفضل من سابقيهم، فهم يكرّسُون الطبقية وينفقون ببذخ سفيه في تفاهات شكلية لا تصنع تقدمًا ولا

تمحو تخلفًا، و إذ يشكو صديق العمر محجوب من الخدمات المتردية وغياب الضرورات، يفكر الراوي في المؤتمر الذي تنظمه وزارة المعارف لمناقشة سبل توحيد أساليب التعليم في القارة الأفريقية: «لن يصدق محجوب أنهم تدارسوا تسعة أيام في مصير التعليم في أفريقيا في «قاعة الاستقلال» التي بُنيت لهذا الغرض، وكلفت أكثر من مليون جنيه».

يعيش الوزراء وكبار المسئولين حياة ترف تفوق الخيال، والقطيعة بين القمة والقاع قائمة في زمني الاحتلال والاستقلال. لا يملك الفقراء والبسطاء من الناس إلا التقوقع وصياغة قوانينهم الخاصة التي تحميهم من السقوط، وتحفظ لهم فرصة الحياة وفق القليل المتاح من إمكانات: «هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء. حسبوا لكل شيء حسابه. لا يفرحون لمولد ولا يحزنون لموت. حين يضحكون يقولون: «أستغفر الله وحين يبكون يقولون: أستغفر الله. لا يقولون: وأنا ماذا تعلمت؟ تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر. وأنا ماذا تعلمت؟».

يتعلم الراوي من قومه البسطاء عميقي الحكمة أكثر مما يتعلمه في بعثته الأوروبية لدراسة الشعر الإنجليزي، واللافت للنظر أنه في سنوات الغربة هذه كان أخلاقيًا متزمتًا على الصعيد الجنسي، ففي حواره مع العجوز ود الريس، مجنون النساء والجنس، يؤكد في نبرة توحي بالصدق أنه لا يعرف شيئًا عن «نسوان النصارى»، وهو ما يستدعي تعليقًا ساخرًا لاذعًا من الرجل الذي يؤمن أن لذة النكاح هي الأعظم: «أي كلام هذا؟ شاب مثلك في عز الشباب يعيش سبع سنوات في بلاد الهنك والرنك وتقول لا أدري».

الراوي الشاب زوج وأب، وسمعته في القرية مضرب الأمثال. التزامه بوصية مصطفى سعيد يدفعه إلى الاهتمام بالأرملة حسنة محمود وولديها، ولا يستطيع أن يخفي غيظه واستياءه من رغبة ود الريس في الزواج من الأرملة الشابة التي لا تتجاوز الثلاثين. مشروع الزواج غير المتكافئ لا يناقض الأعراف والتقاليد الموروثة السائدة في القرية الصغيرة، لكن الراوي بثقافته العصرية يرى في الفكرة خروجًا عن قواعد العدل والمنطق كما يفهمها: «هذا هو القربان الذي يريد ود الريس أن يذبحه على حافة القبر، ويرشي به الموت فيهمله عامًا أو عامين».

لا يملك الراوي حق الرفض أو القبول، وغاية ما يستطيعه هو عرض الأمر عليها فترفض

بلا تردد، وعندئذ تطوله الاتهامات العنيفة من ود الريس، الرجل الذي لا يرى للنساء حقوقًا: «بغتة تدفق من ود الريس غضب جنوني لم أكن أظن أنه من طبيعته. ثار ثورة عارمة، وقال شيئًا أدهشني حقيقة: اسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج. أنت السبب. لاشك أن بينك وبينها شيئًا. ما دخلك أنت؟ أنت لست أباها ولا أخاها ولا ولي أمرها. إنها ستتزوجني رغم أنفك وأنفها. أبوها قبل وأخواتها قبلوا. الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في المدارس لا يسير عندنا. هذا البلد فيه الرجال قوامون على النساء».

الغضب يدفع ود الريس إلى الإسراف الانفعالي وتوجيه الاتهامات المسيئة: «لاشك أن بينك وبينها شيئًا»، لكن الاتهام يصادف الحقيقة في جانب منه، ذلك أن إعجاب الراوي بأرملة مصطفى يتحول إلى حب لا يستطيع مقاومته، ولا يملك القوة للإعلان عنه وتحويله إلى زواج. صديقه المقرب محجوب لا يفهم السر في تكليفه بالوصاية، فلم يكن الأقرب إلى مصطفى سعيدًا، وهو من يقترح عليه جادًا أن يتزوج أرملته: «لماذا لا تتزوجها؟ أنا متأكد أنها ستقبل. أنت وصي على الولدين، وبالأحرى أن تتم الموضوع وتصبح أبًا».

اقتراح جاد لا يُقال على سبيل العبث والسخرية، فلن يكون الراوي أول أو آخر من يجمع بين زوجتين، ولا جدية أيضًا في استنكار الراوي الذي يتهم صديقه بالجنون، ففي أعماقه يعترف بحبه لحسنة بنت محمود: «أنا، مثله ومثل ود الريس وملايين آخرين، لست معصومًا من جرثومة العدوى التي يتنزى بها جسم الكون».

الأرملة المأزومة أكثر شجاعة وجرأة من الراوي المسكون بالتردد، وهي من تبادر بالذهاب إلى أبيه تطلب الزواج حتى تنجو من شرك ود الريس، وإذ يفشل مسعاها وتضطر إلى الرضوخ والإذعان، لا يبقى أمامها إلا أن تقتل الزوج العجوز وتنتحر، وعندئذ يتهم الراوي مصطفى سعيد بالمسئولية الضمنية عن الجريمة المروعة: «لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال. وأنا أحس بالمرارة والحقد، فبعد هؤلاء الضحايا جميعًا، توج حياته بضحية أخرى، حسنة بنت محمود، المرأة الوحيدة التي أحببتها، قتلت ود الريس المسكين وقتلت نفسها من أجل مصطفى سعيد».

لا يخلو الاتهام من منطق وجيه جدير بالاهتمام، فالدائرة مغلقة وتفرض على الخاضعين

لها أن يذعنوا لمصائر قدرية لا مهرب منها ولا فكاك. مصطفى يصنع المناخ، والراوي مثقف متردد غير قادر على الحسم والاختيار والقيادة. لا يرى نفسه إلا موظفًا تقليديًا يعمل في خدمة النظام الصارم الذي يحدد الإيقاع ولا يسمح بالتمرد على المنظومة السائدة، وفي هذا السياق لا يبدو مستغربًا أن يذهب إلى أفضلية صديقه محجوب، الفلاح البسيط النشيط الجاد، عند المقارنة: «وأقول له بإعجاب حقيقي: أنت الذي نجحت لا أنا، لأنك تؤثر على الحياة الحقيقية في القطر. أما نحن فموظفون لا نقدم ولا نؤخر. الناس أمثالك هم الورثاء الشرعيون للسلطة. أنتم عصب الحياة. أنتم ملح الأرض. ويضحك محجوب ويقول: إذا كنا نحن ملح الأرض فهي أرض ماسخة».

ينهار البناء كله ولا تبقى إلا الأطلال، وفي مكتبة مصطفى سعيد يتجول الراوي مع أوراق الراحل وذكرياته، ويهيمن عليه الشعور بأنه مجرد أداة ذات دور مرسوم بمعرفة العبقري الغريق الذي يخطط ويتنبأ بما سوف يكون: «سئمت قراءة الأوراق. لاشك أن ثمة أوراقًا كثيرة أخرى دفينة في هذه الغرفة، كأجزاء في لغز حسابي، يريد مصطفى سعيد مني أن أكتشفها وأضعها جنبًا إلى جنب، وأخرج منها صورة متكاملة تكون في صالحه. إنه يريد أن يُكتشف كأثر تاريخي له قيمته. لاشك في ذلك. وأنا أعلم الآن أنه اختارني أنا لهذا الدور».

ليس صحيحًا أن مصطفى سعيدًا هو من يتحكم في قواعد اللعبة، فهو لن ينجح بمعزل عن استسلام الراوي وعجزه عن الابتكار والتمرد على النص الميكانيكي الذي يتوهمه. كأنه يريد استنساخ التجربة وإعادة إنتاجها عندما يدخل الماء عاريًا مع نهاية الرواية، وتكشف كلماته عن جوهر الأزمة وسر المأزق: «تلفت يمنة ويسرة فإذا أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب».

مصطفى سعيد من ضحايا دوامة التأرجح بين الشمال والجنوب، وها هو صديقه الشاب يعيد سيرته ويتلفت يمنة ويسرة، لا يستطيع المضي ولا يستطيع العودة، فما النهاية والمآل؟. لا شيء إلا ما يعلنه قبل إسدال الستار: «إنني أقرر الآن أنني أختار الحياة. سأحيا لأن ثمة أناسًا قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولأن عليَّ واجبات يجب أن أؤديها. لا يعنيني إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى. وإذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسى. سأحيا

بالقوة والمكر. وحركت قدمي وذراعي بصعوبة وعنف حتى صارت قامتي كلها فوق الماء. وبكل ما بقيت لي من طاقة صرخت، وكأنني ممثل هزلي يصيح في مسرح: النجدة. النجدة».

تنتصر الحياة الكائنة دون نظر إلى المثال المأمول غير المتحقق، ولا شيء إلا القيام بالمتاح من الواجب مسلحًا بالغفران والنسيان. الاستغاثة واجبة، ذلك أن سباق التتابع قوامه فريق متكامل ولا يقتصر على فرد أو فردين.

رتشارد

إنجليزي يعمل في وزارة المالية السودانية، وواحد من ضيوف المحاضر الجامعي منصور، الذي يشهد بيته مناقشات ساخنة تبدأ بالحديث عن الزواج المختلط، وتصل إلى مصطفى سعيد ودوره في خدمة المصالح الاستعمارية، وما يُقال عن تعاونه المريب مع وزارة الخارجية البريطانية.

لا يتدخل رتشارد في الحوار الذي يدور حول تاريخ زواج السودانيين بالأوروبيات، ولا يستطيع أن يجزم برأي حاسم في المنسوب إلى مصطفى من دور في خدمة السياسة الاستعمارية، لكنه لا يخفي عدم إعجابه بالمفاهيم الاقتصادية ذات النزعة اليسارية التي يروج لها مصطفى سعيد: «إنني قرأت بعض ما كتب عما أسماه اقتصاد الاستعمار. الصفة الغالبة على كتاباته أن إحصائياته لم يكن يوثق بها. كان ينتمي إلى مدرسة الاقتصاديين الفابيانيين الذين يختفون وراء ستار التعميم هروبًا من مواجهة الحقائق المدعمة بالأرقام. العدالة، المساواة، الاشتراكية.. مجرد كلمات».

رؤيته النقدية هذه تنطلق من قراءة بعض كتابات مصطفى سعيد، والموقف السلبي الذي يعلنه لا يقتصر على مصطفى وحده، بل إنه يمتد إلى مدرسته الاقتصادية التي لا تروقه، ذلك أن رتشارد ينتمي إلى جبهة مضادة، ترفض النزعة الإنسانية في الاقتصاد، وتتحفظ على غلبة الرؤية السياسية عند التصدي لقضايا يرون أنها علمية خالصة لا تتسع للخيال والإبداع: «رجل الاقتصاد ليس كاتبًا كتشارلز دكنز، ولا سياسيًا كروزفلت. إنه أداة، آلة، لا قيمة لها بدون الحقائق والأرقام والإحصائيات. أقصى ما يستطيع أن يفعله هو أن يحدد العلاقة بين

حقيقة وأخرى، بين رقم وآخر. أما أن تجعل الأرقام تقول شيئًا دون آخر، فذلك شأن الحكام ورجال السياسة».

رتشارد اقتصادي من طراز مختلف عن مصطفى ومدرسته، ويميل إلى الصرامة المهنية والجفاف الذي يرفض المفهوم المتسع بلا ضفاف للعلم، وهو تصور ميكانيكي يصعب تفعيله في الواقع العملي ذي التفاعلات المعقدة، ذلك أن تحليل الأرقام لا يمكن أن يكون محايدًا بالمعنى المطلق لكلمة الحياد، والمصالح المتناقضة المعبرة عن الانتماءات الطبقية المتباينة تلعب دورًا لا يمكن إنكاره أو إهماله عند التعامل مع الإحصائيات التي لا تصل أبدًا إلى الوقوف على حافة اليقين.

لا توجد علاقة شخصية مباشرة بين رتشارد ومصطفى سعيد، لكنه يسمع عن مغامراته النسائية وعلاقته الوثيقة مع بعض أفراد الطبقة الأرستقراطية ورموز اليسار الإنجليزي، ويرى في هذه الصلات مؤشرات سلبية تختلف حقيقتها عن الظاهر الذي يمكن استنباطه: «لا يوجد على وجه الأرض أسوأ من الاقتصاديين اليساريين، حتى منصبه الأكاديمي- لا أدري تمامًا ماذا كان- يُخيل إليَّ أنه حصل عليه لأسباب من هذا النوع. كأنهم أرادوا أن يقولوا: انظروا كم نحن متسامحون ومتحررون! هذا الرجل الأفريقي كأنه واحد منا! إنه تزوج ابنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة، هذا النوع من الأوروبيين لا يقل شرًا، لو تدرون، عن المجانين الذين يؤمنون بتفوق الرجل الأبيض في جنوب أفريقيا وفي الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة. نفس الطاقة العاطفية المتطرفة، تتجه إلى أقصى اليمين أو أقصى اليسار، لو أنه فقط تفرغ للعلم لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس».

رؤيته هذه بمثابة الامتداد المنطقي لعقلانيته الصارمة وجفافه الذي يخاصم الإسراف الانفعالي والعاطفة المتدفقة، أما حملته على النزعات العنصرية فليست سياسية فكرية بقدر ما هي وليدة المنطق المتزمت المحسوب الذي يخلو من المشاعر، وليس أدل على ذلك من تحليله للواقع السوداني بعد الاستعمار، على اعتبار أنه محكوم بخرافات من نوع جديد: «خرافة التصنيع، خرافة التأميم، خرافة الوحدة العربية، خرافة الوحدة الأفريقية. إنكم كالأطفال تؤمنون أن في جوف الأرض كنزًا ستحصلون عليه بمعجزة، وستحلون جميع مشاكلكم، وتقيمون فردوسًا. أوهام. أحلام يقظة. عن طريق الحقائق والأرقام والإحصائيات، يمكن أن

تقبلوا واقعكم وتتعايشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم. وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد أن يلعب دورًا لا بأس به في هذا السبيل، ولو أنه لم يتحول إلى مهرج بين يدي حفنة من الإنكليز المعتوهين».

لا يتجمل رتشارد ولا يجامل مجالسيه في مقولاته الصادمة، فهو يقول ما يعتقد في صحته دون تفكير عاطفي فيما يتركه ذلك من أثر، ولعل الراوي هو الأفضل والأكثر دقة في تقييم رتشارد، منطلقًا من المنهج نفسه الذي يتبناه، فهو يراه استعماريًا متعصبًا في أعماقه: «لعلنا نؤمن بالخرافات التي ذكرها، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة، خرافة عصرية، هي خرافة الإحصائيات».

الصراع الفكري السياسي بين رتشارد ومنصور لا يمكن أن يصل إلى توافق أو نقطة لقاء، فهما يقفان على طرفي نقيض. إذا كان منصور يتهم الاقتصاد الرأسمالي الاستعماري باستنزاف ثروات الشعوب المستعمرة. فإن رتشارد بدوره يرى أن ضحايا الاستعمار التقليدي يستمتعون على نحو ما بابتكار الحجج الواهية لتبرير العجز والضعف والفشل: « كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا. كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار المستتر. يبدو أن وجودنا، بشكل واضح أو مستتر، ضروري لكم كالماء والهواء».

من ناحية أخرى، لا يوجد عداء جاد بين رتشارد ومنصور، فهما مثقفان نظريان يخوضان في بحور الجدل بلا ضغينة شخصية، والأمر عندهما أقرب إلى المباراة الثقافية التي لا فائز فيها أو مهزوم، وبتعبير الراوي: «لم يكونا غاضبين. كانا يقولان كلامًا مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء، تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار».

روبنسن

إنجليزي يتقن اللغة العربية، ويُعْنى بدراسة الفكر الإسلامي والعمارة الإسلامية. يقيم في القاهرة مع زوجه اليزابيث، ويستضيفان المراهق مصطفى سعيدًا عند قدومه للدراسة في العاصمة المصرية، مطلع العقد الثاني من القرن العشرين.

تنعكس اهتمامات الزوجين على الجولات التي يقومان بها بصحبة ضيفهما الصغير، الذي يلعب دور الابن في حياة المحرومين من الإنجاب: «فزرت معهما جوامع القاهرة، ومتاحفها

وآثارها. وكانت أحب مناطق القاهرة إليهما، منطقة الأزهر. كنا حين تكل أقدامنا من الطواف، نلوذ بمقهى بجوار جامع الأزهر، ونشرب عصير التمر هندي، ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري».

الولع بزيارة الأزهر، الحي الشعبي الديني العريق، يعبر عن طبيعة مزاج روبنسن الأقرب إلى الروح الشرقية، وقراءة شعر أبي العلاء المعري تنم عن تبحره في الثقافة العربية الإسلامية، التي تتجاوز سطحية السائحين العابرين والموظفين التقليديين، لكن الزوجةإليزابيث هي صاحبة البصمة الأهم في حياة مصطفى سعيد، وتستمر علاقتها معه عبر المراحل المختلفة من عمره.

بعد موت مصطفى غرقًا، يكتب الراوي رسالة إلى مسز روبنسن، ولم تكن معرفته بعنوانها إلا بقايا حوار قديم مع مصطفى، ويأتي الرد فيتطرق في جانب منه إلى مصير روبنسن، والمتاح عنه من معلومات قبل المراسلة أنه مات بالتايفوئيد ودفن في القاهرة في مقبرة الإمام الشافعي، بعد أن اعتنق الإسلام. بالنظر إلى سلوك الرجل واهتماماته، لا يبدو مستغربًا أن تكون نهايته على هذا النحو، ولاشك أن إسلامه و إيثار الدفن في القاهرة نتيجة متوقعة تتوافق مع اهتمامه الكبير بالتراث العربي الإسلامي من ناحية ومخالطة المصريين المسلمين المعاصرين من ناحية أخرى.

في غرفة مصطفى المغلقة المحجوبة عن الجميع، حتى يدخلها الراوي بعد فترة غير قصيرة من موته، تظهر صورة لروبنسن وزوجه اليزابيث مع السوداني الصغير الذي يغمرانه بمشاعر مودة صادقة، ويعود تاريخ الصورة إلى السابع عشر من أبريل سنه 1913، عندما كان مصطفى في عامه الخامس عشر، وعندما ترد الأرملة العجوز على رسالة الراوي، يتجلى حبها العميق للزوج الراحل ومصطفى معًا. تدلل روبنسن باسم «ركي»، أما اسم تدليل مصطفى فهو «موزي»، وتقول عن الزوج في رسالتها: «إنني أعيش هنا وحيدة في آيل اف وايت. وقد سافرت إلى القاهرة في يناير الماضي وزرت قبر زوجي. كان ركي يحب القاهرة حبًا عظيمًا وقد شاء القدر أن يُدفن في المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم.

إنني أشغل نفسي بتأليف كتاب عن حياتنا- ركي وموزي وأنا – كانا رجلين عظيمين، كل بطريقته. كانت عظمة ركي في قدرته على جلب السعادة للآخرين. كان سعيدًا بمعنى الكلمة، تفيض السعادة منه إلى كل من يتصل به».

الحب غير المحدود الذي تكنه اليزابيث لروبنسن ومصطفى، ركي وموزي، لا يعني تماثلهما أو تشابههما، فهما في حقيقة الأمر مختلفان جذريًا، ولا مشترك يجمعهما إلا التفرد والتميز عن الآخرين. إذا كان مصطفى صاحب بصمة في دراساته الاقتصادية، فإن روبنسن جدير بالاحترام والتقدير في ساحة مغايرة: «سأكتب عن الخدمات الجليلة التي أداها ركي للثقافة العربية، مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة وشرحها والإشراف على طبعها».

اليزابيث صاحبة الدور الأهم في حياة مصطفى، من الطفولة إلى ذروة الرجولة، ووجودها في الرواية أقوى حضورًا من زوجها، لكن روبنسن يبدو جادًا مخلصًا وديعًا، مولعًا بالتراث العربي الإسلامي، كما يتمثل في اكتشاف المخطوطات وشرحها وطباعتها، وبذلك التوجه يختلف عن الأغلب الأعم من الأوروبيين المعاصرين له، داخل القارة الأوروبية وفي المستعمرات.

❐❐❐

obeikandl.com

ز

زوج إيزابيلا

قبل انتحارها، تكتب إيزابيلا سيمور رسالة قصيرة تقول فيها: «إذا كان في السماء إله، فأنا متأكدة أنه سينظر بعين العطف إلى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول قلبها، ولو كان في ذلك إخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوج».

الزوج الذي تجرح كبرياءه بخيانتها، طبيب ناجح لا يحمل اسمًا، يدلي بشهادته في محاكمة مصطفى سعيد، الذي تتضمن قائمة الاتهامات الموجهة إليه مسئوليته عن انتحار إيزابيلا سيمور وشيلا غرينود وآن هممند، فضلاً عن جريمة القتل العمد لزوجه جين مورس.

قبل ظهور مصطفى في حياة إيزابيلا، تقضي المرأة أحد عشر عامًا في حياة زوجية سعيدة مستقرة، تثمر بنتين وابنًا، وبظهور مصطفى في حياتها يتغير كل شيء إلى النقيض. يتقدم الزوج للإدلاء بشهادته فتتعلق به الأبصار، ووفق تعبير مصطفى نفسه: «كان رجلاً نبيل الملامح والخطو، رأسه الأشيب يكلله الوقار، وتجلس على سمته مهابة لا مراء فيها. كان رجلاً لو وضعت معه على ميزان، فإن كفته ترجح كفتي أضعاف أضعاف».

التفوق الكاسح الذي يشير إليه مصطفى ليس حاسمًا حتميًا لا يحتمل الاختلاف، ولاشك أن إيزابيلا نفسها لا توافق على هذا التقييم بشكل مطلق، ولابد أنها تفتقد مع الزوج الوقور النبيل المهيب ما تراوده من سعادة، وهو الفقد الذي يدفعها إلى التعلق بمصطفى، والوصول إلى محطة الموت انتحارًا.

obeikandi.com

الجراح الناجح شاهد دفاع لا اتهام، وما يقوله في شهادته ينهض دليلاً قاطعًا على تسلحه بالموضوعية الصارمة التي تخلو من شوائب الاندفاع العاطفي غير المحسوب، الذي يفضي عند غيره إلى التحامل والخلل في التقييم: «قال في الصمت الذي خيم على المحكمة. الإنصاف يحتم عليَّ أن أقول إن إيزابيلا زوجتي كانت تعلم بأنها مريضة بالسرطان. كانت في الآونة الأخيرة، قبل موتها، تعاني من حالات انقباض حادة. قبل موتها بأيام اعترفت لي بعلاقتها بالمتهم. قالت إنها أحبته و إنه لا حيلة لها. كانت طول حياتها معي مثال الزوجة الوفية المخلصة. وأنا بالرغم من كل شيء لا أحس بأي مرارة في نفسي، لا نحوها ولا نحو المتهم. إنني فقط أحس بحزن عميق لفقدها».

ليس مثل كلماته هذه في التعبير عن الاعتدال والتجرد والحرص على الإنصاف الذي يخلو من عكارات الحقد والكراهية، فهو يقر بإخلاص إيزابيلا ووفائها قبل أن يتغير المسار بالعلاقة الاستثنائية التي تعترف بها فيغفر لها. حديثه عن الغفران والتسامح يبدو صادقًا بلا افتعال أو ادعاء، وهو يدرك أن شهادته هذه تتضمن الانحياز الضمني للمتهم، وكفيلة بتبرئته والإفلات به من المشنقة، لكنه ينتصر للعدل متخلصًا من شهوة الثأر والانتقام، ويحتفظ فحسب بحقه في الحزن الذي لا تمتد آثاره إلى الآخرين.

□□□

obeikandl.com

س

ستكول

الناظر الإنجليزي للمدرسة الوسطى التي يلتحق بها مصطفى سعيد، بعد نهاية المرحلة التعليمية الأولى. بالنظر إلى التفوق غير العادي الذي يتسم به مصطفى، فإنه يحقق نجاحًا مذهلاً يتجاوز به الطموح المحدود الذي يقنع به العاديون من زملائه: «كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل إليها المرء في التعليم تلك الأيام. وبعد ثلاثة أعوام، قال لي ناظر المدرسة، وكان إنكليزيًا: هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر. اذهب إلى مصر أو لبنان أو انكلترا. ليس عندنا شيء نعطيك إياه بعد الآن. قلت له على الفور: أريد أن أذهب إلى القاهرة. فسهَّل لي، فيما بعد، السفر، والدخول مجانًا في مدرسة ثانوية في القاهرة، ومنحة دراسية من الحكومة. وهذه حقيقة في حياتي، كيف قيضت الصدف لي قومًا ساعدوني وأخذوا بيدي في كل مرحلة، قومًا لم أكن أحس تجاههم بأي إحساس بالجميل. كنت أتقبل مساعداتهم، كأنها واجب يقومون به نحوي».

في السنوات الأولى من القرن العشرين، كان السودانيون يتخوفون من التعليم العصري ويمنعون أبناءهم عنه، لكن يتيم الأب مصطفى يتحرك في استقلالية تدفعه إلى المدرسة بإرادته، ولا يقنع بالذي يرضي الآخرين فيحلم باستكمال تعليمه في القاهرة. مستر ستكول، دون نظر إلى هويته الاستعمارية، يجد في نبوغ مصطفى ما يبرر مساعدته لأسباب موضوعية، ومن هنا يسهِّل السفر والتعليم المجاني، ويمثل بذلك واحدًا من أفراد المنظومة التي تساعد مصطفى في مراحل مختلفة من حياته، لكن المراهق المتفرد يستقبل التشجيع والدعم كأنه واجب لا

obeikandl.com

يستحق الشكر والامتنان، متنقلاً إلى مرحلة جديدة في مكان آخر: «وصلت القاهرة، فوجدت مستر روبنسن وزوجته في انتظاري، فقد أخبرهما مستر ستكول بقدومي».

الزوجان الإنجليزيان المقيمان في القاهرة، يواصلان تقديم المساعدة بتوصية من ستكول، فهما بمثابة الامتداد للناظر الإنجليزي، الذي لا يملك إزاء النبوغ إلا أن يتحمس ويقدم كل المتاح من مساعدة.

سعيد

والد مصطفى سعيد، لكنه لا يترك أثرًا يُذكر في حياة ابنه الوحيد، ويتوافق ذلك مع موته المبكر: «نشأت يتيمًا، فقد مات أبي قبل أن أُولد ببضعة أشهر، لكنه ترك لنا ما يستر الحال. كان يعمل في تجارة الجمال. لم يكن لي إخوة، فلم تكن الحياة عسيرة عليَّ وعلى أمي».

تاجر جمال مستور الحال، لا تتزوج أرملته أم مصطفى بعد رحيله، ويتسم أسلوبها في تربية الابن الوحيد بقدر من الغرابة، حيث الابتعاد عن الإسراف العاطفي والتواصل الحميم، وفي هذا السياق لا تتحدث عن الأب الراحل وذكرياتها معه، لكن سفر مصطفى إلى القاهرة لاستكمال دراسته يدفعها إلى استدعاء الأب الراحل في كلمات قليلة عند الوداع: «لو أن أباك عاش، لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك. افعل ما تشاء».

مصطفى بدوره لا يفكر كثيرًا في أبيه، لكنه لا يتورع عن اختلاق الأكاذيب بشأن ملابسات موته وهو ينصب شراكه للإيقاع بإيزابيلا سيمور: «وقادنا الحديث إلى أهلي، فقلت لها، غير كاذب هذه المرة، إنني يتيم وليس لي أهل. ثم عدت إلى الكذب، فوصفت لها وصفًا مهولاً كيف فقدت والدي، حتى رأيت الدمع يطفر إلى عينيها. قلت لها إنني كنت في السادسة من عمري، حين غرق والداي مع ثلاثين آخرين في مركب كان يعبر بهم النيل من شاطئ إلى شاطئ».

قصة كاذبة مصنوعة لا أصل لها، ولعلها من وحي اللحظة، والهدف هو تشكيل لوحة ذات أجواء شجنية مؤثرة تعينه في الوصول إلى الفتاة الإنجليزية. اللافت للنظر أن مصطفى، المتمرد الجموح غير التقليدي، يعود إلى السودان ويستقر ويتزوج ويتخذ مسار حياته شكلاً

مختلفًا، يتجلى بوضوح في أسلوب الاختيار التقليدي عند تسمية ابنيه، فالأكبر يحمل اسم جده لأمه: محمود، والثاني يحمل اسم جده لأبيه: سعيد.

سعيد مصطفى سعيد

الابن الأصغر لمصطفى سعيد وحسنة محمود، ويحمل اسم جده لأبيه. لا تُتاح للأخوين فرصة أن يعيشا طويلاً مع أبيهما، الذي يموت غريقًا ويجعل من صديقه الراوي وصيًا عليهما. يحدد له في الرسالة المغلقة مؤشرات الرعاية التي يرومها لابنيه، والملمح الأبرز هو تجنب أن يسيرا على دربه: «أن تشمل أهل بيتي برعايتك وأن تكون عونًا ومشيرًا ونصيحًا لولديَّ، وأن تجنبهما ما استطعت مشقة السفر. جنبهما مشقة السفر. وساعدهما أن ينشآ نشأة عادية ويعملا عملاً مفيدًا».

لم تكن حياة مصطفى سعيد إلا سفرًا طويلاً مستمرًا مرهقًا، حافلاً بالتجارب والمغامرات والتحولات، ثم ينتهي به المطاف في القرية الهادئة الوديعة التي يراود الاستقرار فيها، وهو المصير الذي يتمناه لولديه اللذين يغادرهما بلا عودة وهما في مطلع رحلة الحياة، محرومين من معرفة تاريخ الأب، وهي معرفة تُتاح بالضرورة عندما يطَّلعان بعد النضج على ما في مكتبته المغلقة من الأسرار والخبايا: «وأنا أترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطي ولديَّ مفتاح الغرفة وتساعدهما على إدراك حقيقة أمري. إنه يهمني أن يعلما أي نوع من الناس كان أبوهما- إذا كان ذلك ممكنًا أصلاً- وليس هدفي أن يحسنا بي الظن، حسن الظن هو آخر ما أرمي إليه- ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتهما، ولكن في وقت لا تكون المعرفة فيه خطرًا. إذا نشآ مشبعين بهواء هذا البلد وروائحه وألوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضاناته وحصاداته وزراعاته فإن حياتي ستحتل مكانها الصحيح كشيء له معنى إلى جانب معان كثيرة أخرى أعمق مدلولاً. لا أدري كيف يفكران فيَّ حينئذٍ. قد يحسان نحوي بالرثاء، وقد يحولانني بخيالهما إلى بطل. هذا ليس مهمًا. المهم أن حياتي لن تجيء من وراء المجهول كروح شريرة تلحق بهما الضرر. وكم كنت أتمنى أن أظل معهما، أراقبهما يكبران أمام عيني ويكونان على الأقل مبررًا لوجودي».

لا ينشغل مصطفى كثيرًا بأن يحسنا به الظن، والمعرفة الآمنة هي طموحه الذي يوصي به مضمرًا أن يعانقا الانتماء إلى القرية والوطن. لاشك أنه يحبهما ويرى فيهما خلاصة وثمرة حياته الحافلة بكل ما هو غرائبي مثير، وفي هذا الإطار يتطلع إلى ألا يكررا تجربته: «واحسرتي إذا نشأ ولداي، أحدهما أو كلاهما، وفيهما جرثومة هذه العدوى، عدوى الرحيل».

بعد ثلاث سنوات من رحيل الأب، يعانق سعيد عامه السابع، ما يعني وفاة مصطفى وهو في الرابعة، ولم يكن الأكبر محمود قد تجاوز الخامسة عند الرحيل. في الاحتفال بختانهما، يراهما الراوي الوصي طفلين عاديين: «يركبان حمارًا كل صباح إلى المدرسة على بعد ستة أميال. إنهما أمانة في عنقي، ومن الأسباب التي تحضرني هنا كل عام أن أتفقد أحوالهما».

من ناحية أخرى، يشيد محجوب بذكائهما، وما يتسمان به من أدب، وبعد انتحار أمهما في أعقاب قتلها للزوج الذي يُفرض عليها قهرًا، يضمهما إلى بيته بعد أن يكتمل اليتم ولا يبقى لهما إلا الجد محمود الغارق في أحزانه، أما الوصي الرسمي فإنه يقيم في الخرطوم ولا يملك فرصة رعايتهما عن قرب.

سيمور «إيزابيلا»

واحدة من النساء اللاتي تسقطن في شرك مصطفى سعيد، وينتهي بها الأمر إلى الانتحار، وتترك رسالة قصيرة تقول فيها للحبيب الأفريقي: «إذا كان في السماء إله، فأنا متأكدة أنه سينظر بعين العطف إلى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول قلبها، ولو كان في ذلك إخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوج. ليسامحني الله ويمنحك من السعادة مثل ما منحتني».

المرأة المسكينة المسكونة بالظمأ إلى السعادة، ذات جمال خاص يتمثل في الوجه المستدير والميل إلى البدانة. زوجة جراح ناجح مرموق شهير، وأم لبنتين وابن: «قضت أحد عشر عامًا في حياة زوجية سعيدة، تذهب للكنيسة صباح كل أحد بانتظام، وتساهم في جمعيات البر. ثم قابلته واكتشفت في أعماقها مناطق مظلمة كانت مغلقة من قبل».

سعادتها الزوجية التقليدية، التي ترادف الاستقرار والحياة الراكدة المألوفة، تختلف جذريًا عن تلك السعادة العنيفة المتوهجة التي تجدها مع مصطفى سعيد. معه وبه، تعيد اكتشاف

الكثير من المخبوء في أعماقها، ولا تكتمل ملامح المشهد بمعزل عن الانتباه إلى ما يقوله الزوج الطبيب في شهادته أمام المحكمة التي يمثل أمامها مصطفى: «الإنصاف يحتم عليَّ أن أقول إن إيزابيلا زوجتي كانت تعلم بأنها مريضة بالسرطان. كانت في الآونة الأخيرة، قبل موتها، تعاني من حالات انقباض حادة. قبل موتها بأيام اعترفت لي بعلاقتها بالمتهم. قالت إنها أحبته وأنه لا حيلة لها. كانت طول حياتها معي مثال الزوجة الوفية المخلصة. وأنا بالرغم من كل شيء لا أحس بأي مرارة في نفسي، لا نحوها ولا نحو المتهم. إنني فقط أحس بحزن عميق لفقدها».

حياة إيزابيلا سيمور لوحة مركبة معقدة تتضمن مجموعة من العناصر المثيرة للدهشة: ظاهر أسري مستقر سعيد، حرمان وتطلع إلى آفاق مختلفة غير محددة، مرض قاتل ميئوس من شفائه، تسامح وصدق وتأرجح مرهق بين الإخلاص والخيانة. منذ اللقاء الأول الذي يجمعهما في حديقة «هايد بارك»، ذات يوم صيفي قائظ، ينظر إليها مصطفى كفريسة تستحق المطاردة وإحكام الحصار: «هذه السيدة، نوعها كثير في أوروبا، نساء لا يعرفن الخوف، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع. وأنا صحراء الظمأ، متاهة الرغائب الجنونية».

رؤيته هذه تمهد للصدام والالتهام، لكن إيزابيلا سيمور بدورها تساهم في الوصول إلى الذروة الجنونية التي يتطلع إليها مصطفى، فهي تصغي إلى حكاياته وأكاذيبه في صمت مشجع وتعاطف مسيحي يقود إلى التواصل من منطلق قوامه مزيج من الفضول والدهشة وشهوة المغامرة: «وجاءت لحظة أحسست فيها أنني انقلبت في نظرها مخلوقًا بدائيًا عاريًا، يمسك بيده رمحًا، وبالأخرى نشابًا، يصيد الفيلة والأسود في الأدغال. هذا حسن. لقد تحول حب الاستطلاع إلى مرح، وتحول المرح إلى عطف، وحين أحرك البركة الساكنة في الأعماق، سيستحيل العطف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة كما يحلو لي».

تقع إيزابيلا في الشرك بإرادتها ورغبتها وثياب الدهشة التي ترتديها دون قهر وإجبار. يخدعها أم تخدعه؟!. الخديعة مشترك يوحدهما، ولكل منهما أدواته التي يستعين بها في الصراع. امرأة في حدود الأربعين، يتعامل الزمن مع ملامحها وجسدها بحنو لا يترك آثارًا قاسية منفرة: «التجاعيد الدقيقة على جبهتها وعلى أركان فمها لا تقول لك إنها شاخت، بل تقول إنها نضجت».

ليست غافلة عن المدى الذي يمكن أن تصل إليه العلاقة وليدة المصادفة، ومع الشواء والنبيذ تطل كلماتها التي تعبر بشكل غير مباشر عن الكثير المخبوء الذي يعتمل في أعماقها: «الحياة مليئة بالألم. لكن يجب علينا أن نتفاءل، ونواجه الحياة بشجاعة».

الألم والتفاؤل والشجاعة، ثلاثية تبرر التطور السريع للعلاقة، والوصول بعد شهر واحد إلى ذروة الاحتراق والانغماس في إيقاع جديد لا تملك منه مهربًا: «وكنت أعلم أن الطريق القصير الذي سرناه معًا إلى غرفة النوم، كان بالنسبة لها طريقًا مضيئًا، يعبق بعبير التسامح والمحبة، وكان بالنسبة لي الخطوة الأخيرة، قبل الوصول إلى قمة الأنانية».

لن يجديها نفعًا أن تحتج وتراود التراجع والإفلات بعد فوات الأوان، ذلك أن التيار العارم يجرفها وتستحيل مقاومته. لا غرابة أن يفكر الراوي، الذي لا يعرفها بطبيعة الحال، في أسلوب التواصل الجنسي الصدامي بينهما، وأن يتخيل ما كان يجمعهما على ضوء كلمات مصطفى سعيد، وصولاً إلى تفسير للنهاية التي تئول إليها: «إيزابيلا سيمور قالت له: المسيحيون يقولون إن إلههم صُلب ليحمل وزر خطاياهم. إنه إذًا مات عبثًا. فما يسمونه الخطيئة ما هو إلا زفرة الاكتفاء بمعانقتك يا إله وثنيتي. أنت إلهي، ولا إله غيرك. لابد أن هذا هو سبب انتحارها، وليس مرضها بالسرطان. كانت مؤمنة حين قابلته. كفرت بدينها وعبدت إلهًا كعجل بني إسرائيل».

هل تنتحر إيزابيلا سيمور ليأسها من الشفاء؟. ربما!، لكن السؤال يبقى قائمًا: أي شفاء؟. أهو السرطان الذي يفترسها، أم لعنة الازدواجية التي تطاردها في العلاقة المرهقة التي لا تصل بها إلى شاطئ اليقين، كفرًا كان أم إيمانًا؟!.

□□□

obeikandl.com

٤

عبد الكريم

عم الراوي، وواحد من الذين يستقبلونه عند عودته من الخرطوم بعد غيبة سبعة أشهر. ينتبه العائد إلى وجود حمارة سوداء لم يرها من قبل: «وفي الطريق إلى الحي أسألهم عن الحمارة السوداء فيقول أبي: إعرابي غش عمك وأخذ منه حمارته البيضاء التي تعرفها وفوقها خمسة جنيهات أيضًا. ولا أدري أي أعمامي غشه الأعرابي، حتى أسمع صوت عمي عبد الكريم يقول: عليَّ الطلاق هذه أجمل حمارة في البلد كلها. هذه جواد وليست حمارة. إذا شئت وجدت من يعطيني فيها ثلاثين جنيهًا. و يضحك عمي عبد الرحمن و يقول: إذا كانت جوادًا فهي جواد عاقر. لا خير في حمارة لا تلد».

الدفاع الحار لعبد الكريم يؤكد أنه ضحية غش الأعرابي، ومقولته العاطفية الإنشائية عن جمال الحمارة التي تشبه الجواد، و إصراره على ارتفاع قيمتها المادية، كأنها صفقة مربحة، ليس إلا محاولة لتبرير الخداع الذي يتحول معه إلى موضع للسخرية، كما يتجلى في ضحك عبد الرحمن وتعليقه المتهكم.

في سياق آخر، يكشف ود الريس عن خصوصية عبد الكريم واختلافه الجذري عن أفراد أسرته، في الموقف من الزواج والعلاقات النسائية: «قبيلتكم هذه لا خير فيها. أنتم رجال المرأة الواحدة. ليس فيكم غير عمك عبد الكريم. ذلك هو الرجل.

obeikandl.com

كنا بالفعل معروفين في البلد بأننا لا نطلق زوجاتنا ولا نتزوج عليهن، وكان أهل البلد يتندرون علينا ويقولون إننا نخاف من زوجاتنا. إلا عمي عبد الكريم. كان مطلاقًا مزواجًا. وزانيًا أيضًا».

الإسراف في الزواج والطلاق، فضلاً عن العلاقات غير الشرعية، ينم عن اندفاع يبرر التعرض للخداع في واقعة الحمارة السوداء، فمثل هذا النمط من البشر لا يعرف الحسابات وليدة التفكير المتأني، ومن هنا شراء الحمارة بالثمن الباهظ، ثم الدفاع العاطفي المغلوط عن الصفقة الفاشلة!.

عبد المنان

عم الراوي، وأحد مستقبليه عند عودته بالباخرة إلى القرية، في زيارة تقليدية بصحبة زوجه وابنته. في الطريق إلى القرية، يمر الحشد ببناء من الطوب الأحمر على ضفة النيل، وعندما يتساءل الراوي عن طبيعة المبنى، يتطوع عبد المنان بالإجابة التي تتضمن رأيًا نقديًا سلبيًا حافلاً بالمبالغة: «شفخانة. لهم حول لا يستطيعون بناءها. حكومة كلام فارغ. وأقول له إنني كنت هنا منذ سبعة أشهر فقط، ولم يكونوا قد بدأوا بناءها بعد. لكن هذا لا يثني عمي عبد المنان، فيقول: كل الذي يفلحون فيه يجيئون إلينا مرة كل عامين أو ثلاثة بجماهيرهم ولواريهم ولافتاتهم.. يعيش فلان ويسقط علان. كنا مرتاحين أيام الإنكليز من هذه الدوشة».

قد يكون عبد المنان مبالغًا في حديثه عن الفترة الزمنية التي تتعلق بالشروع في بناء الشفخانة، لكن تعبير «حكومة كلام فارغ» يحمل كثيرًا من المؤشرات والدلالات المهمة التي تتجاوز البناء وشخصية العم الهامشي محدود الوجود، فالأمر عنده يطول مجمل السياسة العامة التي تتبعها الحكومة، حيث المفهوم الأحادي السطحي للديمقراطية، التي يتم اختزالها في طقوس واحتفالات انتخابية لا تنعكس إيجابًا على الحياة اليومية للفلاحين البسطاء المحرومين من خدمات ضرورية شتى. الرجل ليس من أنصار الاستعمار والباكين على عهده بطبيعة الحال، لكنه لا يرى في الحكومة الوطنية بعد الاستقلال إلا ولغًا يخلو من الجدوى بـ«الدوشة» التي لا تعني شيئًا إلا عربات اللوري المحملة بالهاتفين في مواسم الانتخابات، ومن هنا يتساءل الراوي كأنه يتفهم دوافعه للسخط ويبررها: «هل هؤلاء الناس الذين يُطلق عليهم «الفلاحون»

في الكتب؟ لو قلت لجدي إن الثورات تُصنع باسمه، والحكومات تقوم وتقعد من أجله، لضحك».

كلمات العم عبد المنان، القليلة المحدودة لاذعة السخرية، تعبر عن هم موضوعي بالغ الخطورة، يتجاوز المبالغة العابرة في الحديث عن فترة بناء الشفخانة. جوهر القصور والتقصير يتعلق بالسياسة العامة التي لا تنحاز إلى الأغلبية إلا بالكلمات والشعارات المجانية عديمة الجدوى.

العمدة

الحاكم المحلي للقرية التي تدور فيها أحداث الرواية، لكنه باهت الوجود محدود التأثير، لا دور له في الأحداث والحوادث الخطيرة المثيرة، ولا مكانة تميزه وتجعله واحدًا من الأعلام العلامات أصحاب الشأن والكلمة المسموعة، مثل الحاج أحمد وود الريس ومحجوب وبنت مجذوب، فضلاً عن استحالة مقارنته بالراوي ومصطفى سعيد.

لا يحمل العمدة اسمًا، ولا تفاصيل عن أسرته وحجم ملكيته الزراعية ودرجة ثرائه. يظهر بشكل هامشي عابر في مأدبة العشاء التي يشهدها بيت مصطفى، ويجتمع فيها عدد غير قليل من وجوه القرية: «ذهبت للعشاء فوجدت محجوبًا، والعمدة، وسعيد التاجر، وأبي».

الشاب محجوب شخصية فاعلة ذو أنشطة إيجابية متعددة، في المشروع الزراعي والجمعية التعاونية ولجنة الشفخانة، ويرأس الوفود التي ترفع الظلامات في مركز المديرية، ومن زعماء الحزب الحاكم في القرية، وفي سياق هذا كله لا تظهر إشارة واحدة إلى العمدة، وهو المهيأ بحكم وظيفته ليكون في الصدارة.

عند غرق مصطفى سعيد في موسم الفيضان العارم، تتحرك القرية للبحث عن جثته، ويتم إرسال إشارة تليفونية إلى مركز البوليس، ويغيب العمدة عن المشهد الذي ينبغي أن يكون في صدارته، بل إن الإشاعات تتهمه بتدبير جريمة قتل مصطفى: «العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم. بعد موته قامت إشاعات بأنهم دبروا قتله. مجرد كلام. لقد مات غرقًا».

العمدة بريء لأنه لا توجد جريمة، لكن الإشاعات تتكئ على وجود مصالح مهددة جراء المشروعات الإيجابية التعاونية التي يتبناها مصطفى سعيد، وهي جهود تبرر الرغبة الكامنة في التخلص منه. في المقابل، يبدو واضحًا أن الغريق الراحل لا يحمل للعمدة شيئًا من الإعجاب والمودة، ففي مكتبته يعثر الراوي على عديد من «السكتشات» لأشخاص من القرية: بكري ومحجوب والجد أحمد وود الريس وحسنة وعبد الكريم وغيرهم، ولا وجود للعمدة.

obeikandl.com

غ

غرينود «شيلا»

واحدة من حبيبات وضحايا مصطفى سعيد، لكنها تختلف عن الأخريات بالأصول الاجتماعية المتواضعة، والبساطة التي تخلو من التعقيد والارتباك، وفضلاً عن ذلك فإنها لا تحظى بالكثير من الاهتمام في أوراق مصطفى واعترافاته وذكرياته: «خادمة في مطعم في سوهو. بسيطة حلوة المبسم، حلوة الحديث. أهلها قرويون من ضواحي هل. أغريتها بالهدايا والكلام المعسول، والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه. جذبها عالمي الجديد عليها. دوختها رائحة الصندل المحروق والند، ووقفت وقتًا تضحك لخيالها في المرآة، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته كأنشوطة حول جيدها الجميل. دخلت غرفة نومي بتولاً بكرًا، وخرجت منها تحمل جرثوم المرض في دمها. ماتت دون أن تنبس ببنت شفة».

ما الذي يدفع فتاة كهذه إلى الانتحار؟!. يذهب المحامي ماكسول فستركين إلى أن شيلا غرينود، مثلها في ذلك مثل آن هممند، تبحث عن الموت بكل سبيل: «وأنهما كانتا ستنتحران سواء قابلتا مصطفى سعيد أو لم تقابلاه»، ويضيف المحامي في مرافعته التي تسعى إلى إنقاذ مصطفى من المشنقة: «هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ولكن قتلهما جرثوم مرض عضال أصابهما منذ ألف عام».

لماذا تبحث خادمة المطعم قروية الأصول والنشأة عن الموت؟، وأي مرض عضال ذلك الذي يصيبها فيبرئ مصطفى سعيدًا من مسئولية انتحارها؟. الصراع بين عالمين وحضارتين

obeikandl.com

تفسير موضوعي فضفاض لا يتوقف عند خصوصية الحالة، ويتجاهل عمدًا أن البتول البكر المسكونة بالبراءة والبساطة تتحطم على صخرة الطقوس الغرائبية المثيرة التي تدير الرأس. تسقط شيلا بلا مقاومة في شبكة الإغراء الذي يتفنن مصطفى في صناعة أجوائه السحرية، وقبل التورط في العلاقة التي تقود إلى الهاوية: «كانت تعمل خادمة في مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البوليتكنيك. كانت ذكية تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة، وأنه سيجيء يوم تنعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم إخوة».

مثل هذه المنظومة الفكرية والسلوكية التي تتسم بالكثير من التفاؤل وتراهن على مستقبل إنساني مثالي رحيب، لا تعني أن الأسرة القروية البسيطة تتسلح بالرؤية المتسامحة نفسها، وبنص كلماتها لمصطفى: «أمي ستجن وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلاً أسود ولكنني لا أبالي».

على الصعيد الجنسي، تبدو العلاقة بين الأفريقي الأسود والإنجليزية البيضاء عابرة لكل اختلاف بينهما، فهي تجد فيه نموذجًا للرجل الذي تبحث عنه وتتحقق معه وتذوب فيه: «كانت تلحس وجهي بلسانها وتقول لي: لسانك قرمزي بلون الغروب في المناطق الاستوائية. كنت لا أشبع منها ولا تشبع مني. تتأملني كل مرة كأنها تكتشف شيئًا جديدًا. تقول لي: ما أروع لونك الأسود، لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة».

الاحتياج متبادل، والعلاقة تكاملية قوامها الانسجام والتناغم، ولذلك يبقى السؤال معلقًا بلا إجابة نهائية حاسمة: لماذا تنتحر فتاة مثل شيلا غرينود؟. لماذا تقود علاقة ناجحة، على المستوى الظاهري، إلى نهاية تعيسة؟!.

«لا أدري» هي إجابة مصطفى عن السؤال في المحاكمة، وليس في أوراقه التي يتواصل معها الراوي ما يقدم مفاتيح الإجابة عن السؤال المراوغ: لماذا تنتحر شيلا غرينود؟!.

❐❐❐

obeikandl.com

ف

فاطمة عبد الصادق

أم مصطفى سعيد، وصاحبة دور بالغ الأهمية في تشكيل شخصيته. يموت زوجها قبل بضعة أشهر من ميلاد الابن الوحيد، والميراث الذي يئول إليهما يكفي لمواجهة تحديات الحياة والابتعاد عن السقوط في هاوية الفقر. تتسم العلاقة التي تجمعها مع مصطفى بقدر غير معهود من الجفاف الذي يخاصم الإسراف العاطفي، وعندما يحكي عنها الابن في حواره مع الراوي، يكشف عن الملامح الأهم والأبرز في شخصيتها: «حين أرجع الآن بذاكرتي، أراها بوضوح، شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم، وعلى وجهها شيء مثل القناع. لا أدري. قناع كثيف، كأن وجهها صفحة بحر، هل تفهم؟ ليس له لون واحد بل ألوان متعددة، تظهر وتغيب وتتمازج. لم يكن لنا أهل. كنا، أنا وهي، أهلًا بعضنا لبعض. كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق. لعلني كنت مخلوقًا غريبًا، أو لعل أمي كانت غريبة. لا أدري. لم نكن نتحدث كثيرًا، وكنت، ولعلك تعجب، أحس إحساسًا دافئًا بأنني حر، بأنه ليس ثمة مخلوق، أب أو أم، يربطني كالوتد إلى بقعة معينة ومحيط معين».

يمكن القول إن كثيرًا من سمات مصطفى سعيد مردودة إلى أمه، فهو يماثلها في الحزم والغرابة والتفرد وتعدد الأقنعة، وأسلوبها في التعامل معه يمهد لنمو وازدهار بذرة الشعور بالاستقلال والحرية، والتحرك بلا قيود عاطفية تكبل صعوده وطموحه وتطلعاته. الحديث بينهما قليل، والهاجس الذي يطل مبكرًا هو اليقين بضرورة وحتمية أن يفترقا سريعًا بلا اندماج.

obeikandl.com

رد فعل فاطمة عبد الصادق على التحاق ابنها الوحيد بالمدرسة، متخذًا القرار دون العودة إليها، يبدو متوافقًا مع طريقتها المعقدة في الانفعال والتفاعل، فلا شيء عندها يستدعي الدهشة ويدفع إلى الخروج عن الإيقاع الهادئ المستقر: «عدت إلى أمي في الظهر فسألتني أين كنت، فحكيت لها القصة. نظرت إليَّ برهة نظرة غامضة، كأنها أرادت أن تضمني إلى صدرها. فقد رأيت وجهها يصفو برهة، وعينيها تلمعان، وشفتيها تفتران كأنها تريد أن تبتسم، أو تقول شيئًا. لكنها لم تقل شيئًا. وكانت تلك نقطة تحول في حياتي. كان ذلك أول قرار اتخذته، بمحض إرادتي».

الالتحاق بالمدارس، في السنوات الأولى من القرن العشرين، مغامرة محفوفة بالمخاطر، وإذا كان الإقبال بلا تردد ينم عن شخصية مصطفى ونزعته الاستقلالية، فإن صمت الأم يؤكد أنها مختلفة عن غيرها من أمهات المرحلة، كأنها تعي أن العلاقة مع وحيدها عابرة مؤقتة لا يمكن أن تدوم.

يتكرر الموقف نفسه عند سفر مصطفى إلى القاهرة لاستكمال دراسته، فهي لا تعرف شيئًا عن قرار السفر، واللقاء بينهما هو الأخير: «حين أخبرني ناظر المدرس بأن كل شيء قد أُعد لسفري للقاهرة، ذهبت إلى أمي وحدثتها. نظرت إليَّ مرة أخرى، تلك النظرة الغريبة. افترت شفتاها لحظة كأنها تريد أن تبتسم، ثم أطبقتهما، وعاد وجهها كعهده، قناعًا كثيفًا، بل مجموعة أقنعة. ثم غابت قليلاً، وجاءت بصرة وضعتها في يدي، وقالت لي: لو أن أباك عاش، لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك. افعل ما تشاء. سافر أو ابق، أنت وشأنك. إنها حياتك، وأنت حر فيها. في هذه الصرة مال تستعين به.

كان ذلك وداعنا. لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء. مخلوقان سارا شطرًا من الطريق معًا، ثم سلك كل منهما سبيله. وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي، فإنني لم أرها بعد ذلك. بعد سنوات طويلة، وتجارب عدة، تذكرت تلك اللحظة. وبكيت».

أقنعة كثيفة تخفي الانفعالات التي تعتمل في أعماقها، ولا جديد في نزعة مصطفى الاستقلالية وفي قدرته على اتخاذ القرارات المصيرية الحاسمة بشكل فردي. فاطمة بدورها تلجأ إلى الصمت والكتمان، وكلماتها في مشهد الوداع المكثف أقرب إلى الرسالة والوصية.

اللوحة في مجملها تخاصم الروح الشرقية التقليدية، فلا متسع للكلمات الإنشائية المنمقة وذرف الدموع في إطار من الضجيج. اللافت للنظر أن مصطفى سعيدًا لا يبكي إلا عند استعادة المشهد في سنوات تالية، ولعل دموعه هذه وثيقة الصلة بتجارب أخرى بعيدة عن مشهد الوداع القديم غير التقليدي.

بعد سنوات طوال حافلة بالتحولات والمغامرات، وفي ظل صراع عنيف مع جين مورس، يقود إلى الإحساس العارم بالذلة والوحدة والضياع، تطل الأم فجأة وتتداخل ذكراها مع الأزمة الخانقة التي يكابدها في العلاقة صانعة المأساة: «وفجأة تذكرت أمي. رأيت وجهها واضحًا في مخيلتي وسمعتها تقول لي: «إنها حياتك وأنت حر فيها». وتذكرت نبأ وفاة أمي حين وصلني قبل تسعة أشهر، وجدوني سكران في أحضان امرأة. لا أذكر الآن أية امرأة كانت. ولكنني تذكرت بوضوح أنني لم أشعر بأي حزن، كأن الأمر لا يعنيني في كثير ولا قليل. تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي. بكيت حتى ظننت أنني لن أكف عن البكاء أبدًا».

يأتي البكاء دائمًا بعد فوات الأوان، وطريقة استقبال مصطفى لخبر وفاة أمه بمثابة الامتداد للموقف القديم منها، فلا شعور بالحزن أو الاهتمام، والهيمنة طاغية لفكرة المرأة الغريبة التي تمثل مرحلة مؤقتة منتهية في حياته.

يرث مصطفى عن أمه كثيرًا من سمات شخصيته المتفردة، ولا متسع عادة للتقارب والتعاطف بين الأشباه. لا ينظر إليها في قداسة تليق بالأمومة، بل إنه لا يتورع عن ادعاء موتها غرقًا مع أبيه كأداة عاطفية مؤثرة للإيقاع بإيزابيلا سيمور، ذلك أن العاطفة لا وجود لها، والتواصل الحميم بين الأم والابن غائب هش كما تكون العلاقة بين الغرباء.

في المقابل، لا يجد الآخرون حرجًا في صناعة تاريخ مشوه بلا أساس لمصطفى وأمه، ومن ذلك ما يقوله المأمور المتقاعد الذي يلتقيه الراوي في القطار، وهو من زملاء الدراسة الأولية لمصطفى: «ويُقال إن أمه كانت رقيقًا من الجنوب. من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوءوا أعلى المراتب أيام الإنكليز».

فاطمة عبد الصادق لا تملك أخلاق الرقيق والعبيد، مثلها في ذلك مثل ابنها الوحيد، فهي

على النقيض من ذلك تمامًا، وأقرب إلى الطليعة التي تتبنى منظومة من الأفكار والمشاعر المغايرة جذريًا لسمات القطيع والأغلبية التقليدية الراكدة.

فستركين «ماكسول»

أستاذ مصطفى سعيد، والمحامي الذي يترافع عنه لإنقاذه من حكم الإعدام. يتضمن التعريف به عددًا من الأنشطة المهمة: «من المؤسسين لحركة التسلح الخلقي في أكسفورد، وماسوني، وعضو في اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستنتية في أفريقيا».

فضلاً عن هذا كله، يعمل ماكسول أستاذًا في جامعة أكسفورد، وعلاقته مع تلميذه عدائية قوامها الكراهية الصريحة المعلنة، وله أسبابه ومبرراته التي يستعرضها مصطفى نفسه في حياد موضوعي يخلو من الإدانة والتعليق: «لم يكن يخفي كراهيته لي. أيام تتلمذي عليه في أكسفورد كان يقول لي في تبرم واضح: أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة. ومع ذلك فها هو ذا يستعمل كل مهاراته ليخلصني من حبل المشنقة».

تقييمه لمصطفى سعيد سلبي يخلو من التعاطف، لكن الموقف ليس شخصيًا، ذلك أنه يتجاوز الفرد الذي يكرهه إلى التأكيد على فشل «المهمة الحضارية» الاستعمارية في أفريقيا، وفي مزيج من الاستعلاء والعنصرية يرى أن الثقافة الغربية لم تترك أثرًا في الشاب القادم من الغابة!. حكمه العنيف ينبئ ضمنيًا بتفوق مصطفى، ومن هنا الإسراف في الهجوم، لكن التاريخ الذي يجمع بين الأستاذ وتلميذه يتوارى في المحاكمة، وينصب التركيز كله على بذل الجهد لإنقاذ المتهم من حكم الإعدام، ولاشك أن جانبًا كبيرًا من الحماس يرتبط بالقضية المثيرة دون نظر إلى المتهم نفسه.

في مرافعته البليغة متقنة البناء، يقدم ماكسول نموذجًا رفيعًا للأداء المحترف الذي يبحث عن مدخل منطقي غير مطروق للبرهنة على صحة فكرة غامضة لا يسهل استيعابها، تتجاوز مصطفى وجريمته إلى الصراع الحضاري وما يترتب عليه من آثار: «ومضى بروفسور ماكسول فستركين يرسم صورة لعقل عبقري دفعته الظروف إلى القتل، في لحظة غيرة وجنون. روى لهم

كيف أنني عُينت محاضرًا للاقتصاد في جامعة لندن، وأنا في الرابعة والعشرين. قال لهم إن «آن همند» و«شيلا غرينود» كانتا فتاتين تبحثان عن الموت بكل سبيل، وأنهما كانتا ستنتحران سواء قابلتا مصطفى سعيدًا أو لم تقابلاه. مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين إنسان نبيل، استوعب عقله حضارة الغرب، لكنها حطمت قلبه. هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ولكن قتلهما جرثوم مرض عضال أصابهما منذ ألف عام».

ينطلق الدفاع من محورين متعارضين متكاملين: عبقرية مصطفى ونبوغه، أزمة الغرب وتدهوره الروحي الذي يطول أبناء الغرب والغرباء معًا. من الضفيرة التي يشكلها عبر هذين العنصرين، يسعى المحامي المتمكن إلى البرهنة على أن الجريمة حضارية لا يمكن اختصارها في فرد متهم ومجموعة من الضحايا، وبتعبير مصطفى نفسه: «حول المحاكمة إلى صراع بين عالمين، كنت أنا إحدى ضحاياه».

تشير عريضة الاتهام إلى مسئولية مصطفى سعيد عن انتحار ثلاث فتيات ونساء، والقتل العمد لزوجه جين مورس. الحكم بالسجن سبع سنوات ليس قاسيًا، وبمثابة النجاح الساحق للبروفسور ماكسول. عندما يدخل الراوي غرفة مصطفى بعد موته، ويلقي نظرة على بعض أوراقه، تظهر سطور لابد أن يكون ماكسول فستركين هو صاحبها، فهي بالضرورة جزء مهم من مرافعته: «يجب أن أعترض على لجوء الاتهام إلى حيلة منطقية مكشوفة. ذلك أنه يريد أن يؤكد مسئولية المتهم في حوادث لم يكن مسئولاً عنها، بناء على عمل حدث فعلاً، ثم يعود ويؤكد افتراضه فيما حدث فعلاً بناء على الافتراضات السابقة. إن المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسئولاً عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر البريطانية في خلال السنوات العشر الأخيرة».

مزيج من القانون والفلسفة، وبراعة مهنية تتجسد نتائجها في الحكم المخفف، ولا يتعارض هذا الموقف مع كراهيته الأصيلة لمصطفى سعيد، فالأمر عنده ليس شخصيًا ولا يمكن أن يكون!.

□□□

obeikandl.com

م

المأمور

موظف متقاعد يلتقيه الراوي في رحلة بالقطار بين الخرطوم والأبيض، يستعيد أيام الدراسة الأولية في الزمن القديم ويشير إلى عدد من زملائه، وصولاً إلى الأبرز والأنبغ من أبناء جيله؛ مصطفى سعيد: «وفجأة رأيت وجه الرجل يضيء، وعينيه تلمعان، وقال في صوت متحمس منفعل: غريبة. تصور أنني نسيت أنبغ تلميذ في فصلنا، ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة. الآن فقط تذكرته. نعم، مصطفى سعيد».

كل الطرق التي يسلكها الراوي تقود إلى مصطفى، وما يحكيه المأمور المتقاعد يؤكد أن الزميل الذي يغيب طويلاً عن ذاكرته هو الأكثر نبوغًا من أبناء جيله، وأقرب إلى المعجزة الاستثنائية. يتفوق على جميع أقرانه، ويختلط الإعجاب والتقدير بالكراهية والضيق في قوله: «كان أول سوداني يُرسل في بعثة إلى الخارج. كان ابن الإنكليز المدلل. وكنا جميعًا نحسده ونتوقع أن يصير له شأن عظيم. نحن كنا ننطق الكلمات الإنكليزية كأنها كلمات عربية. لا نستطيع أن نُسَكِّنَ حرفين متتاليين. أما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه، ويمط شفتيه، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها. كان ذلك يملؤنا غيظًا وإعجابًا في الوقت نفسه. وكنا نطلق عليه، بخليط من الإعجاب والحقد: «الإنكليزي الأسود»....».

الفارق شاسع بين الموظف التقليدي متواضع المكانة، الذي لا يحمل اسمًا، وعبقري متفرد مثل مصطفى سعيد، وفي مسيرة الرجل الوظيفية ما يؤكد محدوديته وضآلته التي تستحيل في

obeikandl.com

ظلها فكرة المقارنة: «أول ما تخرجت، اشتغلت محاسبًا في مركز الفاشر. وبعد جهد جهيد قبلوا أن أجلس لامتحان الإدارة. وقضيت ثلاثين عامًا نائب مأمور. تصور. وقبل أن أُحال على المعاش بعامين اثنين فقط رُقيت مأمورًا».

موظف صغير متواضع المكانة محدود الطموح، لكنه يقدم شهادة جديرة بالاهتمام عن الواقع الموضوعي الذي يعاصره ويعاين آثاره: «كان مفتش المركز الإنكليزي إلهًا يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. وكانوا يتصرفون كالآلهة. يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد، ويتذمر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنكليزي. وكان المفتش الإنكليزي طبعًا هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء».

رؤيته الموضوعية المتزنة الصحيحة، لا تنفي تحامله الذاتي ومرارته الطاغية عندما يعود للحديث عن مصطفى سعيد، فهو يراه من «أراذل الناس» الذين يدينون بالولاء للاحتلال الإنجليزي، ويسرد وقائع عن تاريخه لا أصل لها ولا دليل على صحتها: «كان أبوه من العبايدة، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. إنهم الذين هرَّبوا سلاطين باشا من أسر الخليفة عبد الله التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا روادًا لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان. ويُقال إن أمه كانت رقيقًا من الجنوب. من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوءوا أعلى المراتب أيام الإنكليز».

من أين يستمد كل هذه المعلومات التي يرويها في ثقة كأنها الحقائق الراسخة؟. لا مصدر له إلا الكراهية وشهوة التشنيع، ليس لأسباب شخصية، بل لأن نجاح الآخرين وتحققهم لا يتحقق عنده إلا بأسلحة سلبية مرذولة، وربما يقنع نفسه بالوهم أنه لا يرتضيها لنفسه!.

مبروكة

أكبر زوجات ود الريس، العجوز المولع إلى درجة الهوس بالجنس والنساء. يتسم رد فعلها على قتل زوجها بغرابة ذات طابع كوميدي مثير للدهشة، فوفقًا لما ترويه بنت مجذوب وهي تحكي للراوي عن ملابسات قتل ود الريس بيدي آخر زوجاته حسنة: «العجيب في الأمر أن

زوجته الكبيرة مبروكة لم تصح من نومها طول هذه المدة، مع أن الصياح جذب الناس من طرف المحلة. رحت إليها وهززتها فرفعت رأسها وقالت: «بنت مجذوب، ماذا جاء بك في هذا الوقت؟. قلت لها: قومي. حصلت قتلة في بيتكم. فقالت: «قتلة من؟. قلت لها: بنت محمود قتلت ود الريس وقتلت نفسها. فقالت: في ستين داهية. وواصلت نومها».

ود الريس يدمن الزواج والطلاق، ومبروكة زوجة قديمة يحتفظ بها مع وفرة مغامراته التي لا تخفى. لابد أن المرأة مسكونة بالاستياء والغضب جراء سلوك زوجها غير السوي، المسرف في الاستهتار وعدم مراعاة مشاعرها، لكن المرارة المزمنة لا تبرر اللامبالاة بالجريمة التي تقع قريبًا منها، ولا يمكن استيعاب تعليقها العفوي الشاذ: «في ستين داهية»، كأنها تتحدث عن أمر مألوف عابر عادي!.

لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، ففي حكاية بنت مجذوب للراوي مزيد من الإثارة غير القابلة للتصديق: «وكنا ونحن نجهز بنت محمود نسمع شخيرها. ولما عاد الناس من الدفن وجدناها جالسة تشرب قهوتها. بعض النساء أردن أن يبكين معها فصرخت فيهن: يا نساء. كل واحدة تروح في حالها. ود الريس حفر قبره بيده. وبنت محمود بارك الله فيها، خلصت منه القديم والجديد. ثم زغردت. أي والله يا ولدي، زغردت. وقالت للنساء: نكاية فيكن. التي لا يعجبها تشرب من البحر».

نوم وشخير، ثم استيقاظ لممارسة المألوف من العادات اليومية كأن شيئًا لم يحدث، وصولاً إلى إطلاق الزغاريد في فرحة شامتة لا يجرؤ ألد الأعداء الغرباء على إظهارها.

هل يختلف السلوك الشاذ لمبروكة عن حسنة محمود التي تقتل وتنتحر؟. هل تمثل أفعال ود الريس خروجًا مدانًا عن المعتاد في مجتمع يعطي للرجال كل الحقوق، ويسلب من النساء حقوقهن جميعًا؟. قد يكون الرجل مسرفًا متطرفًا، لكنه يجسد بسلوكه طبيعة المجتمع غير العادل، وهو ما يدفع حسنة إلى القتل ويحرض مبروكة على الشماتة!.

محجوب

صديق طفولة الراوي. يتزاملان في المدرسة الأولية، ثم تتفرق السبل وتتخذ حياة كل

منهما مسارًا مختلفًا، ووفقًا لما يقوله الراوي عن صديق العمر الأقرب إلى قلبه: «كان محجوب في مثل سني، قضينا طفولتنا معًا، وكنا نجلس على درجين متلاصقين في المدرسة الأولية وكان أذكى مني. ولما انتهينا من مرحلة التعليم الأولي. قال محجوب: هذا القدر من التعليم يكفي، القراءة والكتابة والحساب. نحن ناس مزارعون مثل آبائنا وأجدادنا. كل ما يلزم المزارع من التعليم، ما يمكنه من كتابة الخطابات وقراءة الجرائد ومعرفة فروض الصلاة. و إذا كانت لنا مشكلة نعرف نتفاهم مع الحكام».

منذ البدء، يعي محجوب حدود الدائرة التي يتحرك فيها، ولا يرى لنفسه مستقبلاً إلا في الزراعة، أما التعليم فيقتصر الاحتياج إليه على الأهداف العملية التي تتعلق بطبيعة الواقع وتحدياته. يعترف الراوي نفسه أن صديق الطفولة هو الأذكى، لكنه ينصرف بإرادته عن استكمال التعليم، و يتحول إلى طاقة فعالة في مجتمعه المحلي: «فهو اليوم رئيس للجنة المشروع الزراعي، والجمعية التعاونية، وهو عضو في لجنة الشفخانة التي كادت تتم، وهو على رأس كل وفد يقوم إلى مركز المديرية لرفع الظلامات. وحين جاء الاستقلال أصبح محجوب من زعماء الحزب الوطني الاشتراكي الديمقراطي في البلد».

قد يوحي الظاهر المباشر بتفوق الراوي، الذي يحصل على الدكتوراه في الشعر الإنجليزي و يشغل وظيفة حكومية ذات مستقبل مرموق، لكن المسألة ليست على هذا النحو من البساطة: «كنا أحيانًا نتذاكر أيام طفولتنا في القرية فيقول لي: لكن انظر أين أنت الآن وأين أنا. أنت صرت موظفًا كبيرًا في الحكومة وأنا مزارع في هذه البلدة المقطوعة. وأقول له بإعجاب حقيقي: أنت الذي نجحت لا أنا، لأنك تؤثر على الحياة الحقيقية في القطر. أما نحن فموظفون لا نقدم ولا نؤخر. الناس أمثالك هم الورثاء الشرعيون للسلطة. أنتم عصب الحياة. أنتم ملح الأرض. و يضحك محجوب و يقول: إذا كنا نحن ملح الأرض فهي أرض ماسخة».

ليس دقيقًا أن يتفوق الموظف الكبير بالضرورة على الفلاح البسيط، وجوهر المشكلة أن صانعي الحياة الحقيقية لا مكان لهم في السلطة صانعة القرار، ومن هنا يستشري الخلل وتقع القطيعة ذات النتائج الوخيمة بين «ملح الأرض» والسادة المتربعين فوق قمة النظام. يحكي الراوي عن مؤتمر حاشد تنظمه وزارة المعارف لمناقشة سبل توحيد أساليب التعليم في

القارة، ويقدم محجوب نقدًا ناضجًا عميقًا واعيًا لمثل هذه التظاهرات الشكلية ذات التكاليف الباهظة غير المجدية: «فليبنوا المدارس أولاً ثم يناقشوا توحيد التعليم. كيف يفكر هؤلاء الناس؟ يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا أولادنا يسافرون كذا ميلاً للمدرسة. ألسنا بشرًا؟ ألسنا ندفع الضرائب؟ أليس لنا حق في هذا البلد؟ كل شيء في الخرطوم. ميزانية الدولة كلها تُصرف في الخرطوم. مستشفى واحد في مروي نسافر له ثلاثة أيام، النساء يمتن أثناء الوضع. لا توجد داية واحدة متعلمة في هذا البلد».

تعاني القرية الفقيرة من غياب الخدمات الضرورية في التعليم والصحة، وتستأثر العاصمة بكل شيء. كيف يتطور المجتمع في ظل الخلل الفادح الذي يصنع المرارة؟!. الإهمال كفيل بتكريس الموروث الاجتماعي السلبي الذي يكتسب القداسة مع غياب الوعي، واستياء الراوي من مشروع الزيجة التي يراها غير متكافئة بين ود الريس وحسنة محمود، يقابله تحليل محجوب الأكثر إدراكًا لطبيعة المجتمع المحلي وقيمه وأعرافه: «أنت تعرف نظام الحياة هنا. المرأة للرجل، والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل العمر».

التطور المادي الشكلي لا يعني تغييرًا حقيقيًا في منظومة القيم التقليدية التي تحكم وتتحكم، والشعارات العصرية للراوي لا يمكن تسييدها في واقع لا يتقبلها ولا يرحب بها، لأنه ليس مهيأ لاستيعابها. محجوب من يقدم الصياغة المثلى بالغة الدقة لطبيعة العلاقة الجدلية بين البنيتين التحتية والفوقية في المجتمع السوداني: «الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه. تغيرت أشياء. طلمبات المياه بدل السواقي، محاريث من حديد بدل محاريث الخشب. أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس. راديوهات. أوتومبيلات. تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل العرقي والمريسة. لكن كل شيء كما كان. وضحك محجوب وهو يقول: الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثالي وزراء في الحكومة. وأضاف وهو مايزال يضحك: وهذا طبعًا من رابع المستحيلات».

عملية التحول الاجتماعي مركبة معقدة، والتخلص من الموروث السلبي المعوق ليس ميسورًا متاحًا إلا في إطار شامل لم يتحقق بعد، يتجاوز المخترعات العصرية إلى طبيعة الثقافة السائدة من ناحية وموقف السلطة التي لن يوجد في قمتها يومًا أمثال محجوب من ناحية أخرى.

لن يقود التغيير إلا المسلحون بوعي مستمد من الاحتكاك بالواقع وليس من صفحات الكتب، ومحجوب هو النموذج المثالي المنشود الذي لا متسع له في السلطة.

تخضع العلاقة بين الراوي ومحجوب لقانون قديم يمتد إلى زمن الطفولة البعيدة: «يصرخ أحدنا على الآخر حين يغضب. ثم نرضى وننسى». الاختلاف النسبي الملموس بينهما يدِّعم الصداقة ولا يهدمها، فهما متكاملان متجانسان على أرضية التباين. هكذا كانا في السنوات الأولى للعلاقة، وهكذا الأمر أيضًا بعد أن شبا وتحدد لكل منهما مساره: « كنت أغلبه في المصارعة والجري، ويغلبني في سباحة النهر إلى الشاطئ الآخر وتسلق النخل. لا تستعصي نخلة عليه. بيني وبينه من الود كأنه أخ شقيق».

من منطلق الصداقة الوثيقة التي تجمعهما، لا يجد محجوب حرجًا في اقتراح أن يتزوج صديقه من حسنة، بديلاً للعجوز ود الريس: «لماذا لا تتزوجها؟ أنا متأكد أنها ستقبل. أنت وصي على الولدين، وبالأحرى أن تتم الموضوع وتصبح أبًا.

وأحسست بعطرها أمس، وتذكرت الأفكار التي نبتت في رأسي بشأنها في الظلام. وسمعت محجوبًا يضحك ويقول: لا تقل لي إنك زوج وأب. الرجال يتزوجون على زوجاتهم كل يوم. لن تكون أولهم ولا آخرهم».

هل يدرك محجوب بذكائه الفطري وخبرته العملية أنه يحبها ولا يبوح بمشاعره الكامنة في الأعماق؟!. اقتراحه العملي يقدم علاجًا للأزمة لا يتعارض مع التقاليد السائدة، ولا يخوض مغامرة القفز غير المحسوب فوق معطيات الواقع الاجتماعي وثوابته. لا يستجيب الراوي بطبيعة الحال، ويفضي الزواج الإجباري بين حسنة وود الريس إلى جريمة مروعة مزدوجة؛ تقتله وتنتحر!.

عند وصول الراوي إلى القرية، لا يحكي له محجوب عن تفاصيل الواقعة، بل إنه يسخر بكلمات لاذعة من فرط التأثر والوقوف على حافة البكاء: «يا بني آدم اصح لنفسك. عد لصوابك. أصبحت عاشقًا آخر الزمن. جننت مثل ود الريس. المدارس والتعليم رهفت قلبك. تبكي كالنساء. أما والله عجايب. حب ومرض وبكاء. إنها لم تكن تساوي مليمًا. لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن. كنا نرميها في البحر أو نترك جثتها للصقور»

بعد المقولة السابقة الساخرة، يتشاجر الصديقان في لحظة انفلات عصبي من الراوي المأزوم، ومثل هذا التحول العنيف المباغت ليس مستغربًا أو خارجًا عن المألوف. جنون مؤقت يفضي إلى العراك، ومحجوب المولع بالخمر لا ينجو من سلوك مشابه عندما يفرط في الشراب. عندئذ، يرى أن الراحل غرقًا مصطفى سعيدًا هو الخضر، وأن غرفته المغلقة تحوي كنوز الملك سليمان!.

محمود

والد حسنة، زوجة وأرملة مصطفى سعيد، ثم زوجة وقاتلة ود الريس، قبل أن تنتحر بطعنة في القلب.

عندما يعود الراوي من بعثته الأوروبية، ويسأل جده عن مصطفى سعيد، الرجل الغريب الوافد إلى القرية والمستقر فيها، يقول الحاج أحمد في نبرة محملة بالاستياء وعدم الرضا: «قبل أربعة أعوام زوجه محمود إحدى بناته. قلت لجدي: أي بناته؟ فقال: أظنها حسنة. وهز جدي رأسه وقال: تلك القبيلة. لا يبالون لمن يزوجون بناتهم».

لا شيء يعيب مصطفى أو يؤخذ عليه بشهادة الجد نفسه، لكنه يتحفظ على تهاون محمود من حيث المبدأ، فهو لا يتشبث بالتقاليد التي تحرص على الإحاطة الشاملة بتاريخ من يتقدم للزواج، وبخاصة عندما يكون من خارج القرية والعشيرة.

بعد ثلاث سنوات من الترمل، ترفض حسنة بإصرار عنيد أن تتزوج ود الريس، ولا يجد الأب محمود بدًا من التدخل العنيف لإجبارها على القبول: «أبوها شتمها وضربها وقال لها: «تتزوجينه رغم أنفك».

في مجتمع القرية التقليدي، يهيمن الرجال ويتخذون القرارات المصيرية التي تتعلق بالنساء، ومما يهين الكرامة ويخدش الرجولة أن يعجز الأب عن فرض إرادته، وفي هذا الإطار يرفض محمود تدخل محجوب للتراجع عن الزيجة التي لا تقبلها ابنته: « كلمت أباها فقال إنه لا يصبح أضحوكة، يقول الناس ابنته لا تسمع كلامه».

يأبى محمود أن يكون أضحوكة، فالسائد المستقر أن تصغي الابنة وترضخ وتطيع، ولا متسع

للتمرد أو التشبث بحرية الاختيار. القهر الذي يمارسه محمود، ضربًا وشتمًا، يفضي إلى زواج تعيس يحمل كل مقومات السقوط والانهيار، ولاشك أن أحدًا لم يتوقع أن تقتل حسنة زوجها العجوز وتنتحر، وتنعكس الجريمة المروعة على الأب فيعاني الانكسار والانهيار: «محمود في تلك الليلة كاد يهلك من البكاء. يخور كالثور».

هل يبكي موت ابنته منتحرة؟، أم لأن فعلتها الشنيعة غير المسبوقة ستطارده وتتحول إلى نقطة سوداء مشينة لا يمكن نسيانها أو محوها؟!.

يتعرض محمود لكارثة مرعبة، ويدفع الثمن باهظًا بعد تداعيات الواقعة الدموية الانتقامية: «منذ ذلك اليوم المشئوم وهو طريح الفراش. لا يخرج ولا يقابل أحدًا».

محمود مصطفى سعيد

الابن الأكبر لمصطفى سعيد وحسنة محمود. يحمل اسم جده لأمه، أما الصغير سعيد فهو سميُّ جده لأبيه. في الوصية التي يتركها الأب في رسالة مغلقة، لا يتوقف عند أيهما دون الآخر، وكذلك الأمر فيما يقوله الآخرون عنهما. كلاهما عادي من منظور الراوي، وذكي مؤدب عند محجوب. كل ما يُقال عن سعيد ينطبق على محمود حرفيًا، ولا شيء ينفرد به الابن الأكبر إلا أنه عظيم الشبه بأبيه الراحل، أو وفق تعبير الراوي: «يعود إلى خيالي وجه مصطفى سعيد في وجه ابنه الأكبر». إنه أكثر الولدين شبهًا به.

مصطفى سعيد

أحد أهم الشخصيات متقنة البناء عميقة الدلالة طاغية الحضور في تاريخ الرواية العربية، وليس في عالم الطيب صالح وحده. مسيرته في الحياة، التي لا تمتد إلا ما يزيد قليلاً على نصف قرن، تقدم تجربة بالغة الثراء، حافلة بالتحولات، مجسدة للتوافق والتناغم بين الهمين الذاتي والموضوعي. الميلاد والموت في السودان، وبين محطتي البداية والنهاية يقيم ثلاث سنوات في القاهرة، وينفق جل سنوات الشباب والرجولة في المملكة المتحدة حرًا وسجينًا، ثم يتنقل كما تشير التأشيرات في جواز سفره بين فرنسا وألمانيا والصين والدنمارك. تفوقه العلمي

الخارق حقيقة لا يطولها الشك، وثقافته الإنسانية الموسوعية الرفيعة، خارج نطاق تخصصه الاقتصادي، تتجلى في محتويات مكتبته الثرية العامرة، أما جاذبيته الآسرة الساحرة فهي خليط من النعمة والنقمة، ذلك أنها تقوده إلى قمة التفرد مثلما تفضي به إلى هاوية المأساة.

□□□

في مطلع الرواية، يعود الراوي إلى قريته الصغيرة الفقيرة بعد نهاية بعثته الدراسية الإنجليزية وحصوله على درجة الدكتوراه في الشعر، فلا يجد جديدًا يثير الانتباه والاهتمام إلا الوافد الغريب الذي لا يعرفه: «رجل ربعة القامة، في نحو الخمسين أو يزيد قليلاً، شعر رأسه كثيف مبيض، ليست له لحية وشاربه أصغر قليلاً من شوارب الرجال في البلد. رجل وسيم».

يسأل أباه عن الرجل، وتأتي الإجابة موجزة مكثفة لا تشبع فضولاً، ولا تسلط ضوءًا ساطعًا كاشفًا عن حقيقة الغريب الوسيم الذي يستقر في القرية قبل خمس سنوات: «اشترى مزرعة وبنى بيتًا وتزوج بنت محمود.. رجل في حاله، لا يعلمون عنه الكثير».

«رجل في حاله» توصيف إيجابي يعني أنه مسالم وديع لا يثير المشاكل ويتعايش في هدوء مع الآخرين، أما الجد أحمد فلا يخفي تحفظه على سلوك محمود، الذي يزوج بناته دون مبالاة بمعرفة طبيعة الأزواج، لكنه لا ينكر إعجابه بمصطفى عندما يضيف بعد التحفظ كأنه يعتذر: «إن مصطفى طول إقامته في البلد، لم يبد منه شيء منفر، وأنه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام، وأنه يسارع بذراعه وقدحه في الأفراح والأتراح».

محجوب، صديق عمر الراوي، يرى في مصطفى رجلاً عميقًا، ووقائع جلسة لجنة المشروع الزراعي تكشف عن الملامح القيادية التي يتسم بها مصطفى سعيد، فإذ يحتد النقاش حول مخالفة بعض أعضاء اللجنة لنظام الري المتفق عليه، يتدخل مصطفى فيصغي إليه الجميع في احترام زائد، وتبرهن كلماته الحاسمة الواضحة أن رؤيته موضوعية ثاقبة مقنعة: «إن الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم وإلا اختلطت الأمور وسادت الفوضى، وإن على أعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم، فإذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس. ولما فرغ من كلامه هز أغلب أعضاء اللجنة رؤوسهم استحسانًا، وصمت من عناهم الكلام.

لم يكن ثمة أدنى شك في أن الرجل من عجينة أخرى، وأنه أحقهم برئاسة اللجنة، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه».

لا مبالغة في القول إنه من «عجينة أخرى»، ذلك أن مفردات خطابه ذات خصوصية بالنظر إلى اللغة الشائعة، أما توهم استبعاده من رئاسة اللجنة لأنه غريب وافد فليس صحيحًا أو دقيقًا. مصطفى نفسه هو من يصر على رئاسة محجوب، ويؤثر الابتعاد قانعًا بالاندماج المحسوب. لا تغيب عن الراوي أيضًا طبيعة سلوكه المختلف الذي يتسم بالكثير من التهذيب والرقة، وهو ما يتجلى عند زيارته للراوي محملاً ببعض الهدايا من عطايا الحقل، معتذرًا عن المجيء في موعد قد لا يكون مناسبًا: «لم يغب عني أدبه الجم، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة. يدخلون في الموضوع دفعة واحدة، يزورونك ظهرًا كان أو عصرًا، لا يهمهم أن يقدموا المعاذير».

انتماؤه للقرية، حديث العهد بها، صادق أصيل لا افتعال فيه ولا ادعاء، ويبدو واضحًا أنه يجد فيها، مكانًا وبشرًا، ملاذًا آمنًا وواحة يستريح فيها من عناء محطاته السابقة الشاقة: «الحياة في هذا البلد هينة خيرة. الناس طيبون عشرتهم سهلة».

من منطلق انتمائه للقرية وحبه لفلاحيها البسطاء، لا يجد في رسالة الدكتوراه عن شاعر إنجليزي مغمور ما يفيد المجتمع ويشتبك مع قضاياه الحقيقية الملحة، ولا يتورع عن مصارحة الراوي برأيه الصادم: «نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر. لو أنك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب، لكان خيرًا».

لا تروق كلمة «نحن» للراوي، الذي يرى نفسه «ابن البلد» ويراه غريبًا، لكن مصطفى الذي يسخر من الشعر ويشكك في جدواه، يتحرر بفعل الخمر في جلسة شراب يشهدها في منزل محجوب، ويرتد إلى ماضيه الغامض المجهول فيتلو شعرًا إنجليزيًا بصوت واضح ونطق سليم، والقصيدة التي يحلق معها في آفاق بعيدة للشاعر الإنجليزي فورد مادوكس فورد: «ينتظرون الضائعين»، وفي سطريها الأخيرين ما يجسد مأساة مصطفى جراء سلسلة الحروب الذاتية الطويلة التي يخوضها في سنوات سابقة:

«ثمة ضوء ضئيل

ثمة ألم عظيم».

استدعاء القصيدة بفعل الخمر بداية الكشف عن الحقيقة المخبوءة لشخصية مصطفى سعيد، المسكون بالأمل الضئيل والألم العظيم، وفي مواجهة ذهول الراوي ودهشته المنطقية المبررة، يتخلى مصطفى عن دماثته وتهذيبه ورقته، ذلك أنه ينتقل إلى عالم مختلف وينفصل عن الحالة المعهودة التي يرتضيها لنفسه ويتمسك بها: «نظر إليَّ نظرة جامدة، لا أدري كيف أصفها، لكن لعلها كانت خليطًا من الاحتقار والضيق. ودفعني بعنف بيده، ثم هب واقفًا، وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة، مرفوع الرأس، كأنه شيء ميكانيكي».

لا متسع في حالته هذه لاستيعاب الأسئلة التي تقترب من دائرة التحقيق والاستجواب، أما نظرات الاحتقار والضيق فإنها نوع من الاحتجاج التلقائي العفوي جراء الأثر النفسي المترتب على جلسة الشراب واستعادة القصيدة الموجعة، لكن الحالة استثنائية يعود بعدها مصطفى إلى وضعيته التي يحتمي بها، ويعد الراوي الذي تسكنه الحيرة بالبوح والكشف عن الغوامض التي تثير فضوله: «خفت أن تذهب وتتحدث إلى الآخرين. تقول لهم إنني لست الرجل الذي أزعم. فيحدث.. يحدث بعض الحرج، لي ولهم. ولذا فإن لي عندك رجاء واحدًا. أن تعدني بشرفك، أن تقسم لي بأنك لن تبوح لمخلوق بشيء مما سأحدثك به الليلة».

لا يريد مصطفى لعالمه القديم أن يهتز فيغيب الاستقرار الذي ينشده ويسعد به، وهكذا يندفع ليحكي.

□□□

في السادس عشر من أغسطس عام 1898 يولد مصطفى سعيد يتيم الأب، أما العلاقة مع أمه فاطمة عبد الصادق فتتسم بالغرابة والاختلاف عن الشائع المألوف في العلاقات التقليدية بين الأبناء والأمهات. لا وجود للإسراف في العاطفة والحنان، والأحاديث القليلة المتبادلة بينهما دليل عملي على هيمنة ما يشبه الجفاف. في هذا الإطار، يمارس الطفل حرية كاملة غير مقيدة في القراءة والنوم واللعب، ويسيطر عليه منذ البدء شعور بالتفرد مقارنة بأقرانه: «أقصد أنني لست كبقية الأطفال في سني، لا أتأثر بشيء. لا أبكي إذا ضُربت، لا أفرح إذا أثنى عليَّ المدرس في الفصل، لا أتألم لما يتألم له الباقون. كنت مثل شيء مكور من المطاط، تلقيه في الماء فلا يبتل، ترميه على الأرض فيقفز».

كتلة من العقل البارد كأنه يعيش بلا قلب وعاطفة، والالتحاق بالمدرسة الأولية قرار شخصي يتخذه الطفل دون الاستئناس برأي أمه والحصول على موافقتها مسبقًا: «كان ذلك الوقت أول عهدنا بالمدارس. أذكر الآن أن الناس كانوا غير راغبين فيها. كانت الحكومة تبعث أعوانها يجوبون البلاد والأحياء، فيخفي الناس أبناءهم. كانوا يظنونها شرًا عظيمًا جاءهم مع جيوش الاحتلال».

لا تعلق الأم فاطمة على قرار وحيدها الذي يتخذه بمحض إرادته، مدللاً بذلك على حريته المطلقة، وفي المدرسة ينطلق مسلحًا بذكاء خارق وتفوق مذهل في الحفظ والاستيعاب والفهم: «عقلي كأنه مدية حادة، تقطع في برود وفعالية. لم أبال بدهشة المعلمين وإعجاب رفقائي أو حسدهم. كان المعلمون ينظرون إليَّ كأنني معجزة، وبدأ التلاميذ يطلبون ودي. لكنني كنت مشغولاً بهذه الآلة العجيبة التي أُتيحت لي. وكنت باردًا كحقل جليد، لا يوجد في العالم شيء يهزني».

بارد كحقل جليد، لا يلتفت حوله ولا يبالي بالمعجبين والحاسدين. يهرول مصطفى سعيد كأنه يسابق نفسه، وفي المدرسة الوسطى يواصل التحليق ملتهمًا كل المعارف الجديدة دون صعوبة كمن يطالع شعرًا سائغًا ممتعًا. ولأنه ليس كالآخرين ولا يمكن أن يكون، فإن العالم التقليدي يضيق به ولا يستطيع أن يمنحه المزيد: «كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل إليها المرء في التعليم تلك الأيام. وبعد ثلاثة أعوام، قال لي ناظر المدرسة، وكان إنكليزيًا: هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر. اذهب إلى مصر أو لبنان أو انكلترا. ليس عندنا شيء نعطيك إياه بعد الآن. قلت له على الفور: أريد أن أذهب إلى القاهرة. فسهَّل لي، فيما بعد، السفر، والدخول مجانًا في مدرسة ثانوية في القاهرة، ومنحة دراسية من الحكومة».

قد يكون صحيحًا أن عبقرية مصطفى سعيد هي صانعة نجاحه والمسئولة عن صعوده غير المسبوق، لكن ناظر المدرسة يلعب دورًا مهمًا في تقديم الدعم ليستكمل المسيرة. حقيقة كهذه لا ينكرها، والمثير بحق هو غياب الشعور بالامتنان، وهي سمة تلازمه في المراحل التالية من حياته: «كيف قيضت الصدف لي قومًا ساعدوني وأخذوا بيدي في كل مرحلة، قومًا لم أكن أحس تجاههم بأي إحساس بالجميل. كنت أتقبل مساعداتهم، كأنها واجب يقومون به نحوي».

تتشكل النزعة الانفرادية من عناصر الذكاء والجفاف والعقلانية الصارمة واللامبالاة بالآخرين، ومفهوم «الآخر» هنا لا يقتصر على الأغراب وحدهم، فهو يمتد إلى الأم التي لا تمثل في حياته خصوصية تستدعي الاهتمام، ولا يتسم مشهد الوداع عند رحيله بما ينم عن التأثر للفراق: «جاءت بصرَّة وضعتها في يدي، وقالت لي: لو أن أباك عاش، لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك. افعل ما تشاء. سافر أو ابق، أنت وشأنك. إنها حياتك، وأنت حر فيها. في هذه الصرة ما تستعين به.

كان ذلك وداعنا. لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء. مخلوقان سارا شطرًا من الطريق معًا، ثم سلك كل منهما سبيله. وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي، فإنني لم أرها بعد ذلك. بعد سنوات طويلة، وتجارب عدة، تذكرت تلك اللحظة، وبكيت».

بعد سنوات طوال، يتغير فيها مصطفى سعيد ويتبدل كل ما حوله، يواجه موقفًا قوامه الإذلال والانكسار مع جين مورس، المرأة الأخطر والأعظم تأثيرًا في حياته، فيتذكر أمه التي يدمن إهمالها: «رأيت وجهها واضحًا في مخيلتي وسمعتها تقول لي: إنها حياتك وأنت حر فيها. وتذكرت نبأ وفاة أمي حين وصلني قبل تسعة أشهر، وجدوني سكران في أحضان امرأة. لا أذكر الآن أية امرأة كانت.

ولكنني تذكرت بوضوح أنني لم أشعر بأي حزن، كأن الأمر لا يعنيني في كثير ولا قليل. تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي. بكيت حتى ظننت أنني لن أكف عن البكاء أبدًا».

لا تختلف فاطمة عن ابنها في العقلانية والظاهر الجاف والانصراف المسلح بالإرادة القوية عن الدموع والضوضاء، ولاشك أن مشهد الوداع الذي يجمعهما ليس مألوفًا تقليديًا، أما البكاء بعد فوات الأوان فبمثابة الظاهرة المتكررة في حياة مصطفى، المسكون بطموح يصعب إشباعه ويبدو بلا نهاية.

❐❐❐

لا يرى مصطفى في العاصمة المصرية نهاية المطاف، فهي ليست إلا محطة عابرة في سفر طويل لا يعرف نهايته: «وفكرت في القاهرة ونحن في وادي حلفا، فتخيلها عقلي جبلاً آخر، أكبر حجمًا، سأبيت عنده ليلة أو ليلتين، ثم أواصل الرحلة إلى غاية أخرى».

في رحلته إلى القاهرة بالقطار، يلتقي بقس لا يخفي إعجابه ببراعة الصبي الصغير وطلاقته المذهلة في الحديث باللغة الإنجليزية، أما مصطفى نفسه فيضيف إلى عمره الحقيقي أعوامًا حتى لا يستخف به الرجل، ثم يواجهه بمقولة موجزة تجسد ما يتسلح به من شجاعة وجرأة: «إنني أحب السفر وحدي. مم أخاف؟».

كالسهم ينطلق مصطفى سعيد مبرأ من داء الخوف، متشبثًا بذاته دون شعور بالامتنان لمساعدات الآخرين ودعمهم، وعلاقته مع روبنسن وزوجه اليزابيث دليل ساطع على توجهه هذا. يستقبلانه ويحتفيان به ويستضيفانه كأنه الابن عند الوصول إلى القاهرة، لكنه لا ينظر إلى المرأة كأم: «وزندا المرأة ملتفان حول عنقي، وفمها على خدي، ورائحة جسمها، رائحة أوروبية غريبة، تدغدغ أنفي، وصدرها يلامس صدري، شعرت وأنا الصبي ابن الاثنى عشر عامًا بشهوة جنسية مبهمة لم أعرفها من قبل في حياتي».

الطفل مصطفى يسبق عمره، والشهوة الجنسية التي تطيح مبكرًا بثنائية الأم والابن لا تنفي حبه للسيدة التي تلعب بإخلاص دور الأم البديلة، لكنه حب غرائبي غير تقليدي يتوافق مع سمات شخصيته المتفردة: «لعلها كانت تعلم أنني أشتهيها، لكنها كانت عذبة، أعذب امرأة عرفتها. تضحك بمرح، وتحنو عليَّ كما تحنو أم على ابنها».

في المقابل، تكن اليزابيث لمصطفى حبًا غير محدود، ولا يحول حبها هذا دون تقييم موضوعي لا يخلو من إدراك مواطن الضعف التي تؤخذ عليه: «كانت مسز روبنسن تقول لي: أنت يا مستر سعيد إنسان خال تمامًا من المرح. صحيح أنني لم أكن أضحك. وتضحك مسز روبنسن وتقول لي: ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبدًا؟».

طغيان العقل وغياب المرح هما العيبان الأبرز في شخصية مصطفى من منظور مسز روبنسن، وبعد عقود حافلة بالتحولات الجذرية، تكتب المرأة رسالة إلى الراوي تقول فيها: «لقد كان موزي أعز شخص بالنسبة لي ولزوجي. مسكين موزي. إنه كان طفلاً معذبًا ولكنه أدخل على قلبي وقلب زوجي سعادة لا حد لها».

«موزي» اسم التدليل الذي تطلقه وزوجها على الطفل الذي يستضيفانه ويغدقان عليه الحب والحنان والرعاية، ولا حيلة لهما في مواجهة عذابه الذي ينبع من ذاته وليس بفعل عوامل

خارجية يمكن حصارها وعلاجها، وفي الرسالة نفسها تضيف: «كان لموزي عقل عبقري، ولكنه كان متهورًا. كان غير قادر على تقبل السعادة أو إعطائها».

في حياته وبعد موته، تحتفظ اليزابيث بحبها لمصطفى وتعاطفها معه، فهي تراه ضحية على نحو ما، وعبقريًا محكومًا عليه بالتعاسة والعجز عن السعادة، وعندما تصل به مكونات شخصيته غير التقليدية إلى السجن، لا يجد مصطفى إلا حضنها ليبكي فيه: «ويوم حكموا عليَّ في الأولد بيلي بالسجن سبع سنوات، لم أجد صدرًا غير صدرها أسند رأسي إليه. ربتت على رأسي وقالت: لا تبك يا طفلي العزيز».

تنتهي المرحلة القاهرية في حياة مصطفى سعيد، وتتمثل خلاصتها فيما يفكر فيه وهو يتهيأ للرحيل والمغادرة: «وفكرت في حياتي في القاهرة. لم يحدث شيء ليس في الحسبان. زادت معلوماتي. وحدثت لي أحداث صغيرة، وأحبتني زميلة لي ثم كرهتني وقالت لي: أنت لست إنسانًا. أنت آلة صماء. تسكعت في شوارع القاهرة، وزرت الأوبرا، ودخلت المسرح، وقطعت النيل سابحًا ذات مرة. لم يحدث شيء إطلاقًا، سوى أن القربة زادت انتفاخًا، وتوتر وتر القوس».

لندن هي المرحلة الأهم والأطول في حياة مصطفى، يسافر إليها مسلحًا بالمنهج نفسه الذي يلتزم به في المرحلة السابقة: «كان كل همي أن أصل لندن، جبلاً آخر أكبر من القاهرة، لا أدري كم ليلة أمكث عنده. كنت في الخامسة عشرة، يظنني من يراني في العشرين، متماسكًا على نفسي، كأنني قربة منفوخة».

لا تنتهي الحرب التي يخوضها ولا يحل السلام، ذلك أن أمثال مصطفى لن يُتاح لهم الاستقرار المنشود إلا بعد مواجهة عنيفة حاسمة، تنفثئ فيها القربة المنفوخة!.

❐❐❐

لا يتوقف النجاح العلمي في لندن، فالعبقري المتفوق يستكمل دراسته الجامعية ويُعين محاضرًا للاقتصاد في جامعة لندن وهو في الرابعة والعشرين من عمره. وفقًا لما يقوله المدعي العام السير آرثر هغنز في المحاكمة، يكتب مصطفى ويحاضر عن الاقتصاد المبني على الحب لا على الأرقام: «أليس صحيحًا أنك أقمت شهرتك بدعوتك الإنسانية في الاقتصاد؟».

تضم مكتبة مصطفى سعيد، التي يتأمل الراوي محتوياتها بعد موته، بعضًا من مؤلفاته الاقتصادية: «اقتصاد الاستعمار»، «الاستعمار والاحتكار»، «الصليب والبارود»، «اغتصاب أفريقيا»؛ ولعل في هذه العناوين ما يشير إلى مدرسته الإنسانية ذات المنحى اليساري. من المنطقي ألا يحظى توجهه هذا بإعجاب وتقدير الموظف الاستعماري رتشارد، أحد العاملين في وزارة المالية السودانية، فهو يرى أن مصطفى ليس اقتصاديًا جديرًا بالثقة: «إنني قرأت بعض ما كتب عما أسماه اقتصاد الاستعمار. الصفة الغالبة على كتاباته أن إحصائياته لم يكن يُوثق بها. كان ينتمي إلى مدرسة الاقتصاديين الفابيانيين الذين يختفون وراء ستار التعميم هروبًا من مواجهة الحقائق المدعمة بالأرقام. العدالة، المساواة، الاشتراكية .. مجرد كلمات».

الاختلاف أو الاتفاق مع الاجتهادات السياسية والاقتصادية لمصطفى سعيد لا يمثل شيئًا ذا بال، ذلك أن الأزمة المفضية إلى المأساة لا شأن لها بالنظريات والمناهج العلمية. إنه يذهب غازيًا إلى عاصمة الاستعماريين الغزاة، والصراع الذي يخوضه يتمحور حول الرغبة في الثأر وفق طريقته الخاصة: «نعم يا سادتي، إنني جئتكم غازيًا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ. أنا لست عطيلاً. عطيل كان أكذوبة».

«الغازي» مصطفى سعيد يواجه جيشًا من الفتيات والنساء، يتخذ منهن أسيرات كأنه يعوض من خلالهن كل الخسائر التي تلحق بقومه في ساحات أخرى: «أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في فراشي. ثم أسير إلى صيد آخر».

تتساقط النساء عليه كالذباب كما يقول واحد من تلاميذه القدامى، وفي المحاكمة يشير المدعي العام إلى بعض ضحاياه، ويحمِّله المسئولية عن انتحار آن همند وشيلا غرينود وإيزابيلا سيمور، فضلاً عن جريمة القتل العمد لزوجه جين مورس: «كان صوته كأنما يصلني من عالم آخر. ومضى الرجل يرسم بحذق صورة مريعة لرجل ذئب، تسبب في انتحار فتاتين، وحطم امرأة متزوجة، وقتل زوجته، رجل أناني، انصبت حياته كلها على طلب اللذة».

لكل واحدة منهن قصة معه، والمشترك الراسخ بينهن هو النهاية المأسوية وثيقة الصلة بالعلاقة مع مصطفى. تنتحر الأرستقراطية آن همند بالغاز، وتترك قبل انتحارها ورقة صغيرة تحوي عبارة واحدة: «مستر سعيد. لعنة الله عليك».

المصير نفسه تئول إليه شيلا غرينود، خادمة المطعم ذات الأصول القروية الفقيرة والطموح الثوري الذي يراود المساواة ويراهن على انتصار الطبقة العاملة، وكذلك الأمر مع إيزابيلا سيمور التي تكبره بخمسة عشر عامًا على الأقل. امرأة ناضجة، وزوجة طبيب شهير ناجح، وأم تعيش حياة سعيدة مستقرة، ثم تسقط في شراك مصطفى ويقودها إلى الهاوية.

القول بأنه الجاني الشرير وهن الضحايا الطيبات ليس توصيفًا دقيقًا، ذلك أنهن مهيآت منذ البدء للمصير الذي يطولهن، والأزمة كامنة في المجتمع اللاتي تنتمين إليه في المقام الأول. مصطفى ليس بريئًا بطبيعة الحال، لكنه لا يتحمل المسئولية منفردًا، أو كما يقول محاميه ماكسول فستركين: «إن المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسئولاً عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر البريطانية في خلال السنوات العشر الأخيرة».

يحقق «الغازي» مصطفى سعيد انتصارات ساحقة مع عدد وفير من الفتيات والنساء، وتتحول غرفة نومه إلى مقبرة أنيقة ساحرة كالنار التي تجذب الفراشات. تنتشر على الجدران مرايا كبيرة: «حتى إذا ضاجعت امرأة، بدا كأنني أضاجع حريمًا كاملاً في آن واحد. تعبق في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند، وفي الحمام عطور شرقية نفاذة، وعقاقير كيماوية، ودهون، ومساحيق، وحبوب. غرفة نومي كانت مثل غرفة عمليات في مستشفى. ثمة بركة ساكنة في أعماق كل امرأة. كنت أعرف كيف أحركها».

هل يستطيع مصطفى أن يواصل انتصاراته المدوية بلا هزيمة؟. الإجابة بالنفي، وظهور جين مورس نقطة تحول حاسمة يبدأ بعدها التراجع والسقوط.

❐❐❐

تختلف جين مورس عن الأخريات، فهي زوجة مصطفى وهزيمته وقتيلته وصانعة المأساة التي تصل به إلى تحول جديد عاصف: «كل شيء حدث قبل لقائي إياها، كان إرهاصًا. وكل شيء فعلته بعد أن قتلتها كان اعتذارًا، لا لقتلها، بل لأكذوبة حياتي».

يطاردها ثلاثة أعوام وتراوغه، تحبه وتكرهه وتستفزه، ولا شك في أنها تشبهه في التكوين

الاستثنائي الغرائبي لشخصيتها غير التقليدية: «وذات يوم قالت لي: أنت ثور همجي لا يكل من الطراد. إنني تعبت من مطاردتك لي، ومن جريي أمامك. تزوجني. وتزوجتها»!.

مع جين مورس يخوض حربًا متكافئة للمرة الأولى، فهي غول شرس وليست فراشة تسعى إلى الاحتراق وتسعد به. الزواج ليس نهاية المطاف أو بداية الاستقرار والتعايش، فهي مسكونة بالعناد والقدرة على الافتراس، وامتناعها عن الفراش يفجر غضبه الجنوني الذي لا تعبأ به، بل إنها تندفع لمزيد من السخرية والازدراء، وتتهكم على تهديده لها بالقتل وتعامله كأنه الطفل: «أنت يا حلوى لست من طينة الرجال الذين يقتلون».

تتفنن جين في إذلاله و إرهاقه بالضغوط النفسية التي تعذبه، ومعها تنقلب المعادلة القديمة جذريًا. الشاب القوي الواثق الذي يسوق النساء أمامه كالقطيع ويتحكم فيهن، يتحول مع جين إلى ضعيف متهافت يُساق ويتم التلاعب بأعصابه دون رحمة: كنت صيادًا فأصبحت فريسة. وكنت أتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت أستعذب عذابي».

جين مورس تدمن الشجار والإهانة والإساءة، واستهانتها بالموت تمنحها قوة خارقة تحيل الصياد الماهر إلى فريسة معذبة بالمطاردة التي لا تنتهي أشواطها، ولا تريد لها جين أن تنتهي: « كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل، وبقية الوقت نقضيه في حرب ضروس لا هوادة فيها ولا رحمة. كانت الحرب تنتهي بهزيمتي دائمًا. أصفعها فتصفعني وتنشب أظافرها في وجهي ويتفجر في كيانها بركان من العنف فتكسر كل ما تناله يدها من أوان وتمزق الكتب والأوراق. كان هذا أخطر سلاح عندها. كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب مهم أو حرق بحث أضعت فيه أسابيع كاملة».

لا تتورع جين أيضًا عن الخيانة السافرة التي لا تخفيها، ولا تجد حرجًا في الاعتراف الذي يقف على حافة المباهاة، رغبة منها في مزيد من الاستفزاز والتحدي، وينبئ رد فعلها على تهديده بقتلها عن استمتاعها بإذلاله وازدرائه والحط من شأنه. تدرك أهميتها في حياته، وتراهن على استسلامه للعجز: «أنت فقط تقول هذا. ما الذي يمنعك من قتلي؟ ماذا تنتظر؟ لعلك تنتظر حتى تجد رجلاً فوقي.. وحتى حينئذ لا أظنك تفعل شيئًا. ستجلس على السرير وتبكي».

يمكن القول إنها تبحث عن الموت قتيلة على يديه، وإصرارها هذا يجعلها شريكة في

الجريمة وليس مجنيًا عليها. أليس أنها من تحرضه وتتحداه وتزين له الفعلة بالإلحاح على أنه ليس قادرًا؟!. كان لابد أن تأتي اللحظة التي تختل فيها الحسابات مجددًا: «ها هي ذي سفني يا حبيبتي تبحر نحو شواطئ الهلاك. ملت عليها وقبلتها. وضعت حد الخنجر بين نهديها، وشبكت هي رجليها حول ظهري. ضغطت ببطء. ببطء. فتحت عينيها. أي نشوة في هذه العيون. وبدت لي أجمل من كل شيء في الوجود. قالت بألم: «يا حبيبي. ظننت أنك لن تفعل هذا أبدًا. كدت أيأس منك. وضغطت الخنجر بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين. وأحسست بدمها الحار يتفجر من صدرها. وأخذت أدعك صدرها بصدري وهي تصرخ متوسلة: تعال معي. تعال. لا تدعني أذهب وحدي».

مشهد النهاية حافل بالكثير من الدلالات والمؤشرات: الاختلاط والتداخل بين فعلي الجنس والقتل، الحب غير التقليدي الذي يتخذ مسارًا أقرب إلى الكراهية المعلنة والعشق المتطرف الكامن، انتحارها به وفيه كأنها لم تتزوجه إلا من أجل لحظة النهاية التي تجد فيها لذة غامضة يمكن الإحساس بها و يستحيل فهمها!.

□□□

السجن سبع سنوات عقوبة مستحقة، ومخففة أيضًا، تطول مصطفى سعيدًا، وما يقوله القاضي يقدم تقييمًا مهمًا لأنه يتجاوز قضية الفرد القاتل الماثل أمامه إلى صراع أشمل: «إنك يا مستر مصطفى سعيد، رغم تفوقك العلمي، رجل غبي. إن في تكوينك الروحي بقعة مظلمة، لذلك فإنك قد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس: طاقة الحب».

ما السر في «الغباء الروحي» الذي يبدد طاقة الحب؟!. أهي سمة فردية تتعلق بمصطفى وحده، أم أن الأمر أكثر تعقيدًا وشمولاً ويشير إلى الصراع الموضوعي المستعر بين ثقافتين وحضارتين؟. مقولة المحامي ماكسول فستركين بمثابة الاستكمال لكلمات القاضي التي تقترب من الرؤية الصحيحة ولا تصل إليها: «مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين إنسان نبيل، استوعب عقله حضارة الغرب، لكنها حطمت قلبه».

لا تتطرق الرواية إلى سنوات السجن، ولا تتوقف أمام مسيرة مصطفى بعد الإفراج عنه حتى يستقر في القرية التي تنتهي فيها رحلته مع الحياة. وفقًا لما يحكيه للراوي، لا توجد

أسباب محددة لاختيار القرية مسرحًا لأحداث سنواته الأخيرة: «وركبت الباخرة، وأنا لا أعلم وجهتي. ولما رست في هذا البلد، أعجبتني هيئتها. وهجس هاجس في قلبي: هذا هو المكان. وهكذا كان، كما ترى، لم يخب ظني في البلد ولا أهله».

يشتري أرضًا ويتزوج وينجب، ويندمج في نسيج القرية مسالمًا وديعًا يؤدي الواجبات التقليدية في الأفراح والأحزان، محتفظًا بأسرار تاريخه لا يبوح بها، حتى تلعب الخمر دورها ويتلو القصيدة الإنجليزية التي تكشف المستور وتدفعه مضطرًا إلى أن يبوح للراوي بالكثير مما كان يخفيه.

علاقته مع الزوجة حسنة محمود تقليدية في إطار محترم متحضر، ووفق تعبيرها: «كان زوجًا كريمًا وأبًا كريمًا. طول حياته لم يقصر معنا»، وليس أدل على حبها وإخلاصها من امتناعها عن الزواج بعد موته: «بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل».

إجبارها على الزواج من العجوز ود الريس يقود إلى جريمة مزدوجة: تقتله وتنتحر، وبذلك تكرر جريمة زوجها الراحل على نحو ما، لكن الفارق الجوهري يتمثل في الدوافع والأسباب: مصطفى يقتل غضبًا ويأسًا، أما حسنة فتقتل مدفوعة بالحب للذكرى واليقين الذي يسكنها بأنها لن تجد رجلاً مثله.

يموت مصطفى سعيد غرقًا في موسم الفيضان، ولا تحمل الأمواج جثته، ما يعني أنه مستقر في بطون التماسيح. تتردد إشاعات لا تنهض على أساس مقنع حول تدبير قتله بمعرفة العمدة والتجار الذين يكرهونه لدوره الإيجابي في مقاومة استغلالهم، لكن الأمر ليس إلا كلامًا مرسلاً، فليس مصطفى وحده من يطيح به الفيضان العارم.

من ناحية أخرى، يفكر الراوي في احتمال موته منتحرًا، كأنه يختار النهاية المناسبة لحياة حافلة بكل غريب مثير غير مألوف: «إذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية، فإنه يكون قد قام بأعظم عمل مليودرامي في رواية حياته. وإذا كان الاحتمال الآخر هو الصحيح، فإن الطبيعة تكون قد منت عليه بالنهاية التي كان يريدها لنفسه».

لم يُقتل مصطفى سعيد ولم ينتحر، ولا يضن عليه القدر بنهاية مختلفة تتوافق مع تفرده

وخصوصيته. يعيش سنواته الأخيرة في القرية مع مكتبة تنم عن ثقافته الموسوعية العابرة للتخصص، وينفق بعض وقته في الرسم ومراودة الشعر ومحاولات كتابة غير مكتملة.

على الرغم من الفترة القصيرة التي يعرفه فيها الراوي، فإنه يترك فيه أثرًا خطيرًا لا يتراجع أو يخفت بعد موته: «مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما أفتأ أقابله من حين لآخر. لقد عشت خمسة وعشرين عامًا، وأنا لم أسمع به ولم أره. ثم، هكذا فجأة أجده في مكان لا يوجد فيه أمثاله. وإذا بمصطفى سعيد، رغم إرادتي، جزء من عالمي، فكرة في ذهني، طيف لا يريد أن يمضي في حال سبيله».

قبل فترة قصيرة من رحيله، يكتب مصطفى سعيد رسالة مغلقة يوصي فيها بأن يكون الراوي وصيًا على ابنيه وماله: «إنني أترك زوجتي وولديَّ وكل ما لديَّ من متاع الدنيا في ذمتك، وأنا أعلم أنك ستكون أمينًا على كل شيء».

في وصيته هذه، يكشف مصطفى عن الأحلام التي تراوده حول مستقبل ابنيه محمود وسعيد، فهو يناشد الوصي أن يكون عونًا ومشيرًا وناصحًا لهما: «وأن تجنبهما ما استطعت مشقة السفر. جنبهما مشقة السفر. وساعدهما أن ينشآ نشأة عادية ويعملا عملاً مفيدًا».

لا يريد لهما أن يكررا تجربته المرهقة المضنية ويسيرا على دربه، فالطموح الأسمى في الحياة العادية والعمل المفيد والبساطة الآمنة، والأزمات المهلكة تتشكل من هيمنة المغامرة والطموح بلا ضفاف. سنوات الهدوء في القرية هي المرحلة الأفضل في حياة مصطفى سعيد، ومعرفة ابنيه بتاريخه السري المخبوء لا تمثل عنده مشكلة تؤرقه، شريطة أن يستوعبا سيرته في إطار متزن يسمح لهما بالتقييم الموضوعي الذي يقترب من الاعتدال، دون إسراف في الإعجاب أو التحامل: «يهمني أن يعلما أي نوع من الناس كان أبوهما- إذا كان ذلك ممكنًا أصلاً- وليس هدفي أن يحسنا بي الظن، حسن الظن هو آخر ما أرمي إليه، ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتهما، ولكن في وقت لا تكون فيه المعرفة فيه خطرًا. إذا نشآ مشبعين بهواء هذا البلد وروائحه وألوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضاناته وحصاداته وزراعاته فإن حياتي ستحتل مكانها الصحيح كشيء له معنى إلى جانب معان كثيرة أخرى أعمق مدلولاً».

معرفة الحقيقة مقدمة عنده على حسن الظن، والمعرفة رهينة بالوعي والانتماء والتخلص

من لعنة التطرف في المراهنة على المستحيل الذي لا يمكن الإمساك به، وعندئذ لا يموت مصطفى.

□□□

ذروة النجاح وجوهر السعادة في الانتماء الأصيل للوطن وناسه، وكل نجاح يحققه الابنان بمثابة الحياة الجديدة الممتدة لمصطفى سعيد، وبرهان منعش يؤكد أن حياته لم تذهب عبثًا، وأنها لا تخلو من معنى نقي لا يتوارى بعد غيابه.

لا ينجو مصطفى بعد موته من الاتهامات الباطلة والإساءات والأكاذيب التي تلوث تاريخه، فها هو واحد من زملائه القدامى في المدرسة الأولية يزعم أن أمه من الرقيق، ويؤكد في نبرة حقد وكراهية: «الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوءوا أعلى المراتب أيام الإنكليز».

لا يتولى مصطفى منصبًا صغيرًا كان أم كبيرًا في السودان، وعندما يعود إلى وطنه ينهمك في العمل الزراعي البسيط باحثًا عن السلام الروحي والاستقرار النفسي، فعن أي شيء إذًا يثرثر الموظف المتقاعد الذي يصنع لزميله القديم تاريخًا مشوهًا، منفسًا بصناعته هذه عن مرارة الفشل الذي يصاحبه في رحلته الوظيفية المتواضعة؟!.

منصور، المحاضر الجامعي الشاب الذي لم يعاصر مصطفى سعيدًا ولا يعرفه، يزعم بدوره أن الراقد في بطون التماسيح حي يُرزق: «إنه الآن مليونير، ويعيش كاللوردات في الريف الإنكليزي».

ينبري الراوي للدفاع عن صديقه في مواجهة الاتهام الباطل، ويقدم معلومات مغايرة يكشف من خلالها عن نهايته وجملة الميراث المتواضع الذي لا يمكن أن يليق بمليونير يعيش كاللوردات في الريف الإنجليزي: «مصطفى سعيد ترك، بعد موته، ستة أفدنة، وثلاث بقرات وثورًا، وحمارين، و إحدى عشرة عنزة، وخمس نعجات، وثلاثين نخلة، وثلاثًا وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحراز، وخمسًا وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال، وتسعة أرادب قمح وتسعة ذرة، وبيتًا مكونًا من خمس غرف، وديوان، وغرفة واحدة من الطوب الأحمر، مستطيلة

الشكل، ذات نوافذ خضراء، وسقفها ليس مسطحًا كبقية الغرف، ولكنه مثلث كظهر الثور، وتسعماية وسبعة وثلاثين جنيهًا وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقدًا».

يموت مصطفى سعيد غرقًا ولا تموت القضية التي يقترن بها، وليس مثل الراوي في التعبير عن الامتداد وفق متغيرات ومعطيات جديدة: «إنني أبتدئ من حيث انتهى مصطفى سعيد، إلا أنه على الأقل قد اختار وأنا لم أختر شيئًا».

ثمة كراسة في مكتبة مصطفى سعيد، تحمل في صفحتها الأولى عنوان «قصة حياتي»، ولا شيء بعد ذلك إلا الإهداء الذي يستحق التأمل الطويل لأنه يقدم في كلمات قلائل جوهر الأزمة التي تستحق التركيز: «إلى الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء إما سوداء أو بيضاء، إما شرقية أو غربية».

لا تستقيم الحياة بعين واحدة ولسان واحد، والنظرة الأحادية المهلكة هي التي تختصر العالم في الأسود والأبيض، الشرق والغرب. لا خلاص إلا بتعدد العيون والألسنة والألوان، ذلك أن الحياة تتسع، أو ينبغي أن تتسع، للشرق والغرب معًا، تحت مظلة الانتماء الإنساني العابر للأجناس والثقافات.

❐❐❐

منصور

محاضر جامعي وزميل دراسة للراوي في بعثته الإنجليزية، يشهد بيته نقاشًا ساخنًا يشارك فيه الإنجليزي رتشارد وعدد من الأصدقاء. يؤكد منصور في حماس أن مصطفى سعيدًا هو أول سوداني يتزوج إنجليزية، بل أوروبية على الإطلاق، ثم يسترسل في الحديث عن الرجل الذي لا يعرفه كأنه متخصص في التأريخ له: «تزوج في انكلترا وتجنس بالجنسية الإنكليزية. غريب أن أحدًا هنا لا يذكره، مع أنه قام بدور خطير في مؤامرات الإنكليز في السودان في أواخر الثلاثينيات. إنه من أخلص أعوانهم. وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة في الشرق الأوسط. وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة 1936. إنه الآن مليونير، ويعيش كاللوردات في الريف الإنكليزي».

أي يقين في الحديث عن الرجل الذي يموت غرقًا في قرية الراوي، ولا يخلّف وراءه إلا القليل من الأرض والدواب والمال والعقار؟!. من أين يستمد معلوماته عن المليونير الذي يعيش كاللوردات في الريف الإنجليزي؟، وما مصدره في التأكيد اليقيني على الدور الذي يلعبه مصطفى سعيد في مؤامرات الإنجليز متعاونًا مع وزارة الخارجية قبيل الحرب العالمية الثانية، وهي الفترة التي كان مصطفى فيها سجينًا؟!. أقاويل استعراضية مرسلة بلا دليل، والرد العفوي السريع الذي يتطوع به الراوي، مفندًا كل أكاذيبه، يترك أثرًا صاعقًا في نفس منصور، وإذا به يعلق بسؤال غرائبي: «هل أنت ابنه؟».

منصور ذو علاقة قديمة مع الراوي ويعرفه جيدًا، والسؤال الذي يطرحه تجسيد لحالة الذهول التي تصيبه جراء المعلومات المضادة المتدفقة كاشفة كذبه، وسرعان ما يستدرك ليقدم تفسيرًا جديدًا يتعلق بشخصية الراوي كما يتوهمها: «طبعًا أنت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه وأنت لم تسمع به من قبل في حياتك. إنني نسيت أنكم معشر الشعراء، لكم سرحات وشطحات».

إذا كان للشعراء سرحاتهم وشطحاتهم، فما الذي يمكن قوله عن جملة الأكاذيب التي يرددها منصور نفسه في يقين وثقة؟!. في حواره مع الإنجليزي رتشارد، الاستعماري المتعصب، يتشبث منصور بالمنهج نفسه، فهو يفند مقولات خصمه الفكري بنبرة إنشائية قوامها الشعارات التي قد تترك أثرًا في المحافل والتجمعات المتعطشة للكلمات الساخنة الملتهبة، لكنها تخلو من العمق والصدق معًا!.

□□□

مورس «جين»

زوجة مصطفى سعيد وقتيلته وصانعة مأساته، وهي المرأة الوحيدة التي تحاصره وتنتصر عليه بعد معارك مرهقة تستفزه وتقف به على عتبات الجنون. لا غرابة إذًا في أن يؤرخ بها ويعتبرها علامة فارقة في رحلة حياته: «كل شيء حدث قبل لقائي إياها، كان إرهاصًا، وكل شيء فعلته بعد أن قتلتها كان اعتذارًا، لا لقتلها، بل لأكذوبة حياتي».

يمكن القول إن جين مورس هي الشخصية الأهم والأعظم تأثيرًا في حياة مصطفى سعيد، ينحدر بعد الصراع معها وينزلق إلى هاوية الضياع، ويصاحبه اسمها في أحلامه وهواجسه بعد أن يعود إلى الوطن ويراود حياة السلام والهدوء، في القرية الصغيرة الوديعة.

لا تمتهن جين عملاً واضحًا محددًا تتعيش منه، ولا شيء يعرفه مصطفى سعيد عن أسرتها إلا أنهم يقيمون في ليدز، لكنه لا يلتقي بهم بعد زواجه: «كان أبوها تاجرًا لا أدري في أية بضاعة، وكان لها، حسب قولها، خمسة إخوة وكانت هي البنت الوحيدة. كانت تكذب حتى في أبسط الأشياء. تعود إلى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها وأناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل. ولا أستبعد أنها كانت عديمة الأهل، كأنها شهرزاد متسولة».

جين مورس شرسة عنيفة استفزازية حادة الطباع، كاذبة مستهترة عدوانية لا تلتزم بالحد الأدنى من قواعد السلوك السوي في التعامل مع الآخرين. ملامحها الشكلية، بريشة مصطفى سعيد، تنم عن جمال ذي خصوصية متفردة، حيث الغلظة والعنف والشهوة العارمة التي تمثل العنصر الأهم في تكوينها الجسدي والنفسي: «وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما. الأنف يميل إلى الكبر والفم يميل إلى الاتساع والتعبير على الوجه شيء يصعب وصفه في كلمات. تعبير رهيب، محير. الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تعض أسنانها والفك مائل إلى الأمام بكبرياء. هل التعبير في العينين غضب أم ابتسام؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله. هذه إذًا العنقاء التي افترست الغول».

رهيبة محيرة مثل وحش يتهيأ للانقضاض والافتراس، ومن مزيج الغضب والابتسام يتشكل الاستعداد الدائم للاستفزاز الذي ينبع من خليط القوة والعناد واللامبالاة. إذا كان مصطفى سعيد غولاً يلتهم الفتيات والنساء في عاصمة الضباب، فإن جين مورس هي الاستثناء الصادم المرعب الذي يقوده إلى الأساليب الدفاعية للمرة الأولى في حياته، متخليًا عن الاندفاع الهجومي الذي يحقق له الانتصارات في غزواته الناجحة السابقة. معها يتغير مسار الأفريقي الساحر فينقلب إلى التقهقر والانكسار: «كنت صيادًا فأصبحت فريسة. وكنت أتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت أستعذب عذابي».

في اللقاء الأول بينهما، تنظر جين إلى مصطفى بصلف وبرود كأنه غير جدير بالاهتمام،

ويأتي اللقاء الثاني فتهاجمه بشراسة مباغتة لم يعتدها ولا يتوقعها: «أنت بشع. لم أر في حياتي وجهًا بشعًا كوجهك. وفتحت فمي لأتكلم لكنها ذهبت. وحلفت في تلك اللحظة، وأنا سكران، أنني سأتقاضاها الثمن في يوم من الأيام».

تبادر بالهجوم والسباب، وتختفي قبل أن تتيح له فرصة الرد والتنفيس. رغبة الثأر التي تسكنه تبقى ملازمة له حتى النهاية، والشعور بالضعف في مواجهتها يتحول إلى سمة دائمة، فهي قدره الحتمي الذي لا يملك منه مهربًا: «هذه المرأة هي قدري وفيها هلاكي، ولكن الدنيا كلها لا تساوي عندي حبة خردل في سبيلها».

حبه لها من طراز استثنائي فريد لا ينفصل عن الكراهية والحقد والرغبة المزمنة في الانتقام، ومن الازدواجية المعقدة هذه يمكن القول إن البطولة في العلاقة بينهما للاحتياج الغامض وليس الحب بالمعنى التقليدي الشائع. غرائبية سلوكها لا تترك أثرًا سلبيًا يدعو مصطفى إلى الانصراف والزهد، ذلك أنها قدره الذي يستسلم له دون إرادة، ولا متسع هنا لإعمال العقل واتخاذ القرارات الرشيدة المحسوبة: «كان يحلو لها أن تغازل كل من هب ودب حين نخرج معًا. كانت تغازل غرسونات المطاعم وسواقي الباصات وعابري السبيل وكان بعضهم يتشجع ويستجيب ويرد بعضهم بعبارات بذيئة فأتشاجر مع الناس وأضربها وتضربني في عرض الطريق. وما أكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها. لماذا لا أتركها وأنجو بنفسي؟ ولكنني كنت أعلم أن لا حيلة لي وأن لا مفر من وقوع المأساة».

لا حيلة ولا مفر، ومثل كل شبيهين متماثلين متقاربي الطباع يبدو الصدام حتميًا. كلاهما يستمتع بالعذاب ويراه عذبًا، والصراع الطويل المضني يصل بهما إلى محطة الزواج!. من المنطقي أن تكون جين هي صاحبة الاقتراح، ذلك أنها من تقود وتوجه وتتخذ القرارات، ولا يملك مصطفى إلا الخضوع والطاعة: «لبثت أطاردها ثلاثة أعوام. كل يوم يزداد وتر القوس توترًا، قربي مملوءة هواء، وقوافلي ظمأى، والسراب يلمع أمامي في متاهة الشوق، وقد تحدد مرمى السهم، ولا مفر من وقوع المأساة. وذات يوم قالت لي: أنت ثور همجي لا يكل من الطراد. إنني تعبت من مطاردتك لي، ومن جريي أمامك. تزوجني. وتزوجتها».

لا يغير الزواج شيئًا من آليات الصراع المحتدم بينهما، بل إنه يزداد اشتعالاً وعنفًا، ومرة

أخرى يظهر التشبيه بشهرزاد وفي سياق مختلف عن الصورة النمطية السائدة الموروثة: «كأنني شهريار رقيق، تشتريه في السوق بدينار، صادف شهرزاد متسولة في أنقاض مدينة قتلها الطاعون».

شهريار العصري، الذي يحمل اسم مصطفى سعيد، ليس السلطان القاتل الذي يتحكم بجبروته في قواعد اللعبة ويطيح برقاب النساء، فهو يعيش في وضع معكوس يتعذب فيه كما كان يعذب، ويُباع بالثمن البخس بمعرفة امرأة طاغية مفرطة الذكاء والقسوة. تحب مصطفى وتكرهه، وتتفنن في إذلاله والتلاعب به: «كانت ماجنة بالقول والفعل، لا تتورع عن فعل أي شيء، تسرق وتكذب وتغش، ولكنني رغم إرادتي أحببتها ولم أعد أستطيع أن أسيطر على مجرى الأحداث».

بعد الزواج، تمتنع جين عن فراشه، ولا تتورع عن خيانته والاعتراف بالخيانة في مباهاة. في الشجارات المكررة بينهما، تتفنن في تحطيم كل ثمين نادر، والإطاحة بكل هدية غالية وتذكار، وتمزيق الكتب والأبحاث، ولا تتورع عن توجيه الركلات العنيفة مثلما تردد الكلمات القاتلة. لا تخاف تهديده، وتواجهه بحقيقة عجزه عن الفعل: «أنت يا حلوي لست من طينة الرجال الذين يقتلون».

تنبئ المؤشرات جميعًا عن استهانتها بالموت وترحيبها بأن تكون قتيلة مصطفى سعيد وصانعة مأساته، وإذ يقسم على قتلها جراء خياناتها المتعددة السافرة، تبتسم ساخرة وتصفعه بكلمات موجعة مذلة كأنها تستحثه على أن يقتلها: «أنت فقط تقول هذا. ما الذي يمنعك من قتلي؟ ماذا تنتظر؟ لعلك تنتظر حتى تجد رجلاً فوقي.. وحتى حينئذ لا أظنك تفعل شيئًا. ستجلس على السرير وتبكي».

هل تثق في حبه لها، أم أنها مولعة بالوقاحة الاستفزازية التي تتوافق مع شخصيتها العدوانية غير السوية؟. في مشهد القتل، تجمع جين مورس بين الاستسلام والاستمتاع كأنها تمارس فعل الحب وتصل إلى ذروة من النشوة غير المسبوقة. عيناها تمتلئان بالتوهج، وجمالها يتألق، ونبرة الألم في كلماتها الأخيرة تمتزج بفرحة غامضة تليق بمن يصلون إلى هدف منشود يسعون إليه: «يا حبيبي. ظننت أنك لن تفعل هذا أبدًا. كدت أيأس منك. وضغطت الخنجر بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين. وأحسست بدمها الحار يتفجر من صدرها.

وأخذت أدعك صدرها بصدري وهي تصرخ متوسلة: تعال معي. تعال. لا تدعني أذهب وحدي».

لاشك أن مصطفى سعيدًا هو قاتل زوجه جين مورس عمدًا ويستحق عقوبة السجن لسبع سنوات، لكن الصحيح أيضًا، الذي لا يمكن إنكاره، أنها تسعى إلى الموت وتسعد به، وتميته بموتها.

❐❐❐

obeikandl.com

هـ

هغنز «آرثر»

أستاذ القانون في جامعة أكسفورد، والمدعي العام في محاكمة مصطفى سعيد، المتهم الذي يعرف أستاذه القديم جيدًا، ويصفه بأنه صاحب «عقل مريع»، وبارع في محاصرة المتهمين وإرهاقهم نفسيًا: «أعرفه تمام المعرفة، علمني القانون في أكسفورد، ورأيته من قبل، في هذه المحكمة نفسها، وفي هذه القاعة، يعتصر المتهمين في قفص الاتهام اعتصارًا. نادرًا ما كان يفلت متهم من يده. ورأيت متهمين يبكون ويُغمى عليهم، بعد أن يفرغ من استجوابهم. لكنه هذه المرة كان يصارع جثة».

مصطفى سعيد ليس متهمًا تقليديًا ممن يسهل سقوطهم في براثن الداهية آرثر، البارع في ممارسة الضغوط النفسية المرهقة، فهو بدوره من أصحاب العقليات الفذة والقدرة الخارقة على المراوغة، وليس أدل على ذلك من إجابته عن الأسئلة الاتهامية بكلمة واحدة لا تتغير: «لا أدري»، ثم اعترافه بالقتل العمد لزوجه جين مورس دون اهتمام بالعواقب. استسلامه المترفع اللامبالي أداته الأهم في المواجهة الشرسة مع أستاذه القديم، والهجوم العنيف الذي يشنه آرثر لا يترك في نفسه أثرًا أو صدى: «كان صوته كأنه يصلني من عالم آخر. ومضى الرجل يرسم بحذق صورة مريعة لرجل ذئب، تسبب في انتحار فتاتين، وحطم امرأة متزوجة، وقتل زوجته، رجل أناني، انصبت حياته كلها على طلب اللذة».

المحاكمة أقرب إلى المبارزة المثيرة المتكافئة، ولأن مصطفى يقف خارج ساحة الصراع

obeikandi.com

كأنه ليس طرفًا، فإن المواجهة الحقيقية قوامها المدعي العام والمحامي القدير المتمكن البروفسور ماكسول فستركين، الذي يسعى جاهدًا لإنقاذ تلميذه من المشنقة، ويحوِّل القضية من مسارها الشخصي الفردي التقليدي إلى صراع بين الشرق والغرب.

لا تقدم الرواية مزيدًا من التفاصيل عن مرافعة آرثر هغنز، لكن الراوي يعثر في أوراق مصطفى سعيد على قصاصة تتضمن ردًا يكشف ضمنيًا عن طبيعة الاتهامات: «إنني يا مولاي يجب أن أعترض على لجوء الاتهام إلى حيلة منطقية مكشوفة. ذلك أنه يريد أن يؤكد مسئولية المتهم في حوادث لم يكن مسئولاً عنها، بناء على عمل حدث فعلاً، ثم يعود ويؤكد افتراضه فيما حدث فعلاً بناء على الافتراضات السابقة. إن المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسئولاً عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر البريطانية في خلال السنوات العشر الأخيرة».

الكلمات السابقة، بالضرورة، جزء من مرافعة المحامي البارع، يرد بها على قائمة الاتهامات التي يمكن استنباطها من هجومه المضاد على هغنز، ولاشك أن الحكم المخفف على مصطفى سعيد يمثل هزيمة تلحق به، فمن طموح المشنقة إلى السجن سبع سنوات!.

بعيدًا عن قاعة المحكمة والمبارزات القانونية، تمثل الحياة الشخصية لآرثر لوحة حافلة بالكثير من المفارقات المثيرة: «تزوج وطلق مرتين، مغامراته الغرامية معروفة، مشهور بصلاته مع اليسار والأوساط البوهيمية. قضيت عيد الميلاد سنة 1925 في بيته في سافرون ولدن. كان يقول لي أنت وغد ولكنني لا أكره الأوغاد، فأنا أيضًا وغد. لكنه في هذه المحكمة سيستعمل كل مهاراته ليضع حبل المشنقة حول عنقي».

العداء الذي يكنه لمصطفى، كما يتجلى في المرافعة الملتهبة، ليس شخصيًا، وكلمة «الوغد» التي يستخدمها في سنوات سابقة لا ترادف السب والإهانة، فهي عند آرثر كلمة وصفية موضوعية محايدة، تنطبق عليه في المقام الأول، وتتوافق مع حياته الصاخبة على الصعيدين الذاتي والسياسي، حيث المزيج المتداخل المعقد من اليسارية والبوهيمية!.

همند

ضابط برتبة كولونيل في سلاح المهندسين بالجيش البريطاني، وزوجه من عائلة ثرية في

لفربول، وشقيقته زوجة نائب في البرلمان. تنتحر ابنته آن بالغاز بعد علاقة عاطفية جنسية مع مصطفى سعيد، الذي يُحاكم بتهمة القتل العمد لزوجه جين مورس، والمسئولية عن انتحار آن همند وشيلا غرينود وإيزابيلا سيمور.

يُستدعى الكولونيل همند للإدلاء بشهادته في محاكمة مصطفى، ويشير إلى زيارة المتهم للأسرة في لفربول، ويؤكد أنه ترك في نفسه أثرًا طيبًا: «قال إنه يعتبر نفسه إنسانًا متحررًا ليس عنده تحيز ضد أحد. ولكنه رجل واقعي، وقد كان يرى أن زواجًا مثل ذلك لن ينجح. وقال أيضًا إن ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية في أكسفورد، وكانت مترددة بين اعتناق البوذية أو الإسلام. وهو لا يستطيع أن يجزم إذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها، أو لأنها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها».

تترك آن قبل انتحارها ورقة صغيرة تلعن فيها مصطفى، ولاشك أن الأب على دراية بالعلاقة وتداعياتها، ومطَّلع على الرسالة القصيرة التي تتضمن اتهامًا وإدانة، لكنه لا يتأثر في شهادته بهذا كله، ولا يقول إلا ما يتصور أنه الحق. يتخلص همند من المؤثرات الذاتية السلبية التي قد تؤثر على مصداقية رؤيته، ذلك أنه رجل موضوعي يعرف أن الأمر ليس شخصيًا. رفضه للزواج لا يعني تحاملاً عنصريًا، والإشارة إلى الأزمة الروحية لابنته، تكشف عن تشبثه بالصدق دون تحايل يخفي ويشوه الحقيقة. إنه لا يتهم مصطفى بالمسئولية عن انتحار آن ولا يبرئه، فالأمر متروك للقضاء، وغاية ما يستطيعه هو التصريح بكل ما يعرفه دون أن يخفي شيئًا.

يتوقف مصطفى سعيد أمام شهادة همند، التي تنم في جانب كبير منها عن الفارق الشاسع بين الشرق والغرب في منهج وآلية التفكير: «يقف أبوها وسط المحكمة ويقول بصوت هادئ إنه لا يستطيع أن يجزم. هذا هو العدل وأصول اللعب، كقوانين الحرب والحياد في الحرب. هذه هي القوة التي تلبس قناع الرحمة».

يخلو تقييم مصطفى من الإعجاب والرفض، التأييد والمعارضة، فهو يرصد الشهادة من منظور موضوعي محايد يخلو من المؤثرات الذاتية، تمامًا كما يفعل الكولونيل همند. ليس مثل تعبير «القوة التي تلبس قناع الرحمة»، في الكشف عن طبيعة شهادة الأب الذي يفقد ابنته في حادث مأسوي، لكنه لا يحيد عن قواعد وأصول اللعب، ولا يجرؤ على الجزم لأنه لا يدعي

امتلاك الحقيقة المطلقة. أهم ما في القواعد هو الفصل بين الذاتي والموضوعي، والتسلح بالمنطق والتحليل العقلاني دون إسراف انفعالي يقود إلى طمس وتشويه الحقائق.

همند «آن»

من حبيبات وضحايا مصطفى سعيد. الأب ضابط في سلاح المهندسين بالجيش البريطاني، والأم تنتمي إلى عائلة ثرية عريقة في لفربول، والعلاقة مع مصطفى نقطة تحول تصل بها سريعًا إلى محطة النهاية المأسوية: «كانت صيدًا سهلاً، لقيتها وهي دون العشرين، تدرس اللغات الشرقية في أكسفورد. كانت حية، وجهها ذكي مرح وعيناها تبرقان بحب الاستطلاع. رأتني فرأت شفقًا داكنًا كفجر كاذب. كانت عكسي تحن إلى مناخات استوائية، وشموس قاسية، وآفاق أرجوانية. كنت في عينها رمزًا لكل هذا الحنين. وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع. آن همند قضت طفولتها في مدرسة راهبات. عمتها زوجة نائب في البرلمان. حولتها في فراشي إلى عاهرة».

مثل نسائه جميعًا، باستثناء جين مورس، تنجذب آن إلى حتفها عبر مراودة حلم خارق تراهن عليه مع السوداني الأفريقي الغازي. عشقها للمناخات الاستوائية ينعكس على تعلقها بمصطفى كأنه المنقذ القادر على انتشالها من هاوية الضياع، فهو الرمز الحي لكل ما تتطلع إليه من حياة بديلة ذات مذاق مختلف. تتحول الشابة الأرستقراطية الثرية إلى تابعة مذعنة خاضعة، والانتحار نهايتها المأسوية المنطقية التي يبدو واضحًا أنها لا تملك الفرار منها: «وذات يوم وجدوها ميتة انتحارًا بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي. ليس فيها سوى هذه العبارة: مستر سعيد. لعنة الله عليك».

هل يتحمل مصطفى سعيد مسئولية انتحار آن همند كما يتساءل المدعي العام في نبرة اتهامية خلال المحاكمة، أم أنها تبحث عن الموت منتحرة بمعزل عن وجوده في حياتها، كما يؤكد المحامي ماكسول فستركين في دفاعه؟!. الإجابة النهائية الحاسمة لا يمكن الوصول إليها، ذلك أن الفتاة تندفع في عشقها الجنوني بلا ضغوط أو خداع يستحيل اكتشافه، وهي من تبادر إلى الاقتراب من مصطفى بعد محاضرة يلقيها في أكسفورد عن أبي نواس. تخاطبه باللغة العربية،

وترحب باسم «سوسن» الذي يناديها به، وتندمج مع التاريخ البعيد فترى نفسها في زمن الخليفة المأمون، تعيش مع المحاضر ذي الجاذبية الطاغية في بغداد على ضفة نهر دجلة. لا أحد منهما يكذب أو يناور، والبطولة الحقيقية للنشوة النادرة التي تسيطر عليهما فتحيل الأكاذيب إلى حقائق: «وفي غمرة الحلم ذاك حملتني بسيارتها إلى لندن. كانت تسوق بسرعة رهيبة، وبين الحين والحين تترك عجلة القيادة وتطوقني بذراعيها وتصرخ: ما أسعدني إذ وجدتك أخيرًا. إنني سعيدة سعادة لو مت في هذه اللحظة فإنني لن أبالي. وكنا نقف على الحانات في الطريق، ونشرب خمر التفاح أحيانًا والبيرة أحيانًا، والنبيذ الأحمر والنبيذ الأبيض، وأحيانًا نشرب الويسكي. ومع كل كأس أقرأ لها من شعر أبي نواس».

أيهما يقود الآخر وينطلق به ومعه؟!. إنها تعلن عن شعور غير مسبوق بالسعادة، وتندفع إلى المصير المأسوي بإرادتها. دراسة اللغات الشرقية تعني الانطلاق وراء الحلم الكامن في أعماقها قبل ظهور مصطفى سعيد، والإصغاء إلى أشعار أبي نواس تأكيد على بحثها الدءوب عن إيقاع مختلف لحياة لا تروقها ولا تشبعها: «تقول لي إنها ترى في عيني لمح السراب في الصحارى الحارة. وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات، وأقول لها إنني أرى في زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل. وفي لندن أدخلها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة، التي بنيتها عن عمد، أكذوبة أكذوبة».

لا يمكن القول إنها أسيرته أو فريسته، فهي تندفع إلى النهاية الكارثية بإرادتها واختيارها، وتستمتع بدور الجارية سوسن، وتتفانى في الاندماج غير المحسوب: «لبست عباءة وعقالاً وتمددت أنا على السرير فجاءت ودلكت صدري وساقي ورقبتي وكتفي. قلت لها بصوت آمر: تعالي، فأجابتني بصوت خفيض: سمعًا وطاعة يا مولاي. في غمرة الوهم والسكر والجنون أخذتها فقبلت لأن الذي قد كان بيننا كان منذ ألف عام».

لماذا تصب عليه اللعنات في رسالة انتحارها، وهي من تسعى إليه وتتشبث به؟!. ثمة موقف محرج مهين تتعرض له عندما تقتحم جين مورس بيت مصطفى: «شتمت آن همند شتائم مقذعة فانتهرتها وضربتها فلم ترتدع. خرجت آن همند باكية..».

يتحمل مصطفى سعيد مسئولية الحرج والإهانة، لكن الإطار العام للأزمة يتجاوز الواقعة

التي لا يمكن أن تكون سببًا مباشرًا للانتحار. كلاهما قاتل وقتيل، ولعل شهادة الأب أمام المحكمة هي التعبير الدقيق عن التحليل الموضوعي المتوازن بلا تحامل أو تعصب: «وقال أيضًا إن ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية في أكسفورد، وكانت مترددة بين اعتناق البوذية أو الإسلام. وهو لا يستطيع أن يجزم إذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها، أو لأنها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها. كانت آن ابنته الوحيدة، وقد عرفتها وهي دون العشرين، فخدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجًا يكون جسرًا بين الشمال والجنوب، وحولت جذوة التطلع في عينيها الخضراوين إلى رمادي. ومع ذلك يقف أبوها وسط المحكمة ويقول بصوت هادئ إنه لا يستطيع أن يجزم».

الكولونيل همند لا ينظر إلى القضية من منطلق ذاتي عاطفي، ويتجلى ذلك في إشادته بمصطفى من ناحية والاعتراف بدوامة الأزمات التي تعانيها ابنته آن من ناحية أخرى. لا يسهل الجزم بالدوافع الحقيقية للانتحار، ولاشك أن الحضارة الغربية، حيث الحروب المدمرة والجوع الروحي، تمثل سببًا قويًا للبحث عن حياة بديلة ودين جديد، ثم الانتحار يأسًا.

❐❐❐

openkandil.com

و

ود البشير

أحد أزواج بنت مجذوب والأعظم في فحولته الجنسية الخارقة، على الرغم من أن الظاهر لا يوحي بالقوة والتوهج. بنت مجذوب «دفنت ثمانية أزواج»، ومعروفة بالجرأة والصراحة واقتحام المسكوت عنه من قضايا جنسية تتحرج النساء، والرجال أيضًا، عن الخوض فيها. في مجلس سمر ومرح يجمع عددًا من شيوخ القرية، يتساءل بكري: «حدثينا يا بنت مجذوب. أي أزواجك كان أحسن؟ فقالت بنت مجذوب على الفور: ود البشير: فقال بكري: ود البشير الكحيان التعبان؟ كانت العنز تأكل عشاءه.

ونفضت بنت مجذوب رماد السيجارة على الأرض بحركة مسرحية بأصابعها وقالت: عليَّ الطلاق، كان عنده شيء مثل الوتد حين يدخله في أحشائي لا أجد أرضًا تسعني. كان يرفع رجلي بعد صلاة العشاء، وأظل مشبوحة حتى يؤذن أذان الفجر. وكان حين تأتيه الحالة يشخر كالثور حين يُذبح. وكان دائمًا حين يقوم من فوقي يقول: هالله الله يا بنت مجذوب. فقال لها جدي: لا عجب أنك قتلته في عز الشباب. فضحكت بنت مجذوب وقالت: قتله أجله. هذا الشيء لا يقتل أحدًا».

تعبير «كانت العنز تأكل عشاءه»، يؤكد أن «الكحيان التعبان» رجل ضعيف متهافت ينم مظهره عن محدودية القوة، لكن ما تحكيه المرأة الجريئة ذات الخبرة الجنسية العريضة يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ما يتمتع به ود البشير من فحولة غير مسبوقة، ولا تنسى بنت مجذوب أن تميز بصرامة بين إسرافه الجنسي وموته المبكر، فيقينها الراسخ أن الجنس لا يقتل أحدًا!.

obeikandi.com

في الجلسة نفسها، يباهي ود الريس بقدراته الجنسية، وإذ تسخر بنت مجذوب مما يقوله، يرد عليها: «لو كنت تزوجتني يا بنت مجذوب لوجدت شيئًا مثل مدافع الإنكليز. فقالت بنت مجذوب: المدافع سكتت وقت مات ود البشير».

تأكيد عفوي على تفرد ود البشير، الذي يبدو حاضرًا بلا غياب في أعماق المرأة، وعندما تأتي الشهادة من خبيرة ذات تجارب مثلها، فلابد من الإصغاء والإقرار بموهبة الزوج الراحل.

ود البصير

مهندس القرية ذو المواهب المتعددة، يستدعيه الراوي عند الوقوف أمام دار جده وتأمل الباب الضخم العتيق: «لاشك أنه استوعب حطب شجرة كاملة، صنعه ود البصير، مهندس القرية الذي لم يتعلم النجارة في مدرسة، كما كان يصنع عجلات السواقي وحلقاتها، وأيضًا يجبر العظام، ويكوي ويحجم. ويتخصص كذلك في نقد الحمير، قل أن يشتري أحد من أهل البلد حمارة دون مشورته. ود البصير لايزال حيًا إلى يومنا هذا، ولكنه لم يعد يصنع مثل باب بيت جدي، بعد أن اكتشفت الأجيال اللاحقة من أهل البلد أبواب خشب الزان وأبواب الحديد، يجلبونها من أم درمان. والسواقي أيضًا، بار سوقها حين جاءت مكنات الماء».

لا يشير الراوي إلى المرحلة العمرية التي يعيشها ود البصير، لكنه عجوز بالضرورة، ولا شيء أيضًا عن طبيعة وإيقاع حياته في ظل التطور النسبي الذي يطيح بالكثير من الأعمال التي كان يمتهنها ويبرع فيها ويُعتمد عليه بشكل كامل لإنجازها. إنه ليس نجارًا بارعًا فحسب، لكنه يقوم أيضًا بدور الطبيب والبيطري وبيت الخبرة. اعتزاله الاضطراري لا يمحوه من ذاكرة الأجيال التي لم تعاصره، ذلك أن آثاره باقية تُنسب إليه وتشهد على فضله، وهو ضحية على نحو ما لطوفان التغيير العارم الذي لا يرحم أحدًا، وهو تغيير يقتصر على الجوانب المادية المباشرة دون اقتحام للمنظومة الأخلاقية والسلوكية التي تقترن بالموروث ولا يسهل استبدالها والاستغناء عنها، أو كما يقول محجوب لصديقه الراوي: «الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه. تغيرت أشياء. طلمبات الماء بدل السواقي، محاريث من حديد بدل محاريث الخشب. أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس. راديوهات. أوتومبيلات. تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل العرقي والمريسة. لكن كل شيء كما كان».

كل شيء، خارج النطاق المادي، يبقى مقترنًا بالأعراف والقيم والتقاليد، وانتصار التطور لا يتجاوز السواقي ومحاريث الخشب، والهزيمة عندئذ من نصيب ود البصير وأمثاله من علامات ورموز الزمن القديم.

ود الريس

أحد أبرز الشخصيات المتفردة ذات الحضور الطاغي والجاذبية الآسرة، ووفقًا لما يؤكده ود الريس ويقسم على صحته، فإنه في السبعين من عمره: «لا تزيد يومًا واحدًا»، أما عن ملامحه الشكلية فتتسم بالجمال. عيناه ذكيتان، والأنف مرهف وسيم: «وود الريس يستعمل الكحل متذرعًا بأن الكحل سنة، لكنني أظن أنه يفعل ذلك زهوًا. كان في مجموعه وجهًا جميلاً، خاصة إذا قارنته بوجه جدي الذي ليس فيه شيء يميزه، ووجه بكري وهو كالبطيخة المكرمشة. وواضح أن ود الريس يدرك ذلك، وقد سمعت أنه كان في شبابه آية في الحسن، وأن قلوب الفتيات كانت تخفق بحبه قبلي وبحري، أعلى النهر وأسفله».

الوصول إلى العام السبعين لا يغير شيئًا ذا بال من طباعه وصفاته الأصيلة، ليس من حيث المرح والروح الفكاهية والصحة المتينة فحسب، بل أيضًا فيما يتعلق بالولع المتطرف غير المحدود بالنساء والجنس، ويبدأ تشكيل هذا الملمح من شخصيته في مرحلة المراهقة. في الاحتفال بعرس قروي، يخطف جارية ويذهب بها إلى الحقول، وإذ يكتشف العم عيسى فعلته المتبوعة بادعاء الجنون، يذهب إلى أبيه محذرًا: «ابنك هذا شيطان رجيم، وإذا لم نجد له زوجة في هذا النهار أفسد البلد وسبب لنا فضائح لا أول لها ولا آخر. وفعلاً عقدوا لي في نفس اليوم على بنت عمي رجب. الله يرحمها، ماتت في أول ولادة».

في مراحل العمر المختلفة، تسيطر الشهوة الجنسية العارمة على ود الريس، ولم يكن الموت المبكر للزوجة الأولى إلا إيذانًا بمزيد من الانطلاق غير المقيد، أو كما تقول له صديقة العمر بنت مجذوب، في جلسة السمر التي تنعقد في بيت الحاج أحمد: «ومن يومها وأنت تركب وتنزل كأنك فحل الحمير».

منذ الظهور الأول لود الريس على مسرح الأحداث، عند استقبال الراوي العائد من بعثته

الدراسية الأوروبية، يتجلى الاهتمام الطاغي بالجنس والنساء، فهو يتساءل: «هل صحيح أنهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟».

بعد سنوات من عودة الراوي، يبقى ود الريس مسكونًا بالقضية نفسها، ويطرح الأمر مجددًا في جلسة مع الحاج أحمد يشارك فيها الحفيد: «وضربني ود الريس بكوعه في جنبي وقال: قالوا نسوان النصارى شيء فوق التصور. فقلت له: لا أدري.

فقال: أي كلام هذا؟ شاب مثلك في عز الشباب يعيش سبع سنين في بلاد الهنك والرنك وتقول لا أدري».

النساء محور حياة ود الريس، والجنس هو المتعة الأسمى التي لا يكل في طلبها دون إهمال. من هنا تتعدد الزوجات والطليقات، وكل شيء علني صريح لا يستدعي الكتمان والخجل: «كان كثير الزواج والطلاق، لا يعنيه في المرأة أنها امرأة، يأخذهن حيثما اتفق، ويجيب إذا سُئل: «الفحل غير عواف». وأذكر من زوجاته دنقلاوية من الخندق، وهدندوية من الغضارف، أثيوبية وجدها تخدم عند ولده الأكبر في الخرطوم، وامرأة من نيجيريا عاد بها في حجته الرابعة. ولما سُئل كيف تزوجها قال إنه اجتمع بها وبزوجها في السفينة بين بورسودان وجدة وتصادق معهما. ولكن الرجل توفي في مكة يوم الوقوف على عرفات. وقال له وهو يحتضر: أوصيك بزوجتي خيرًا. ولم يجد خيرًا من زواجها. عاشت معه ثلاثة أعوام، وهو وقت طويل بحساب ود الريس. وكان فرحًا بها، وأعظم سروره أنها كانت عاقرًا. وكان يحكي للناس خصائص أفعاله معها، ويقول: من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج. وأثناء حياته معها تزوج بامرأة من الكبابيش، عاد بها في زيارة له إلى حمرة الشيخ. لكن المرأتين لم تطيقا الحياة معًا، فطلق الفلاتية إرضاء للكباشية، ولكن الكباشية، بعد ذلك بقليل، هجرته وهربت إلى أهلها في حمرة الشيخ».

أشكال شتى من النساء متعددي الجنسيات والأصول العرقية في رحلة حياة ود الريس، وهو لا ينشد من الزواج استقرارًا ومزيدًا من الأبناء، فالهدف لا يتجاوز الحصول على المتعة الجنسية الخالصة، وسرعان ما تتحول تجاربه معهن على الفراش إلى حكايات مثيرة تُروى في مرح وبساطة.

على الرغم من وصوله إلى السبعين، وربما أكثر، فإنه يحتفظ بالكثير من حيويته وفحولته وقوته الجنسية الفائقة. الراوي شاهد يعاين بنفسه ويسمع، في طريق عودته إلى بيت الجد قبيل الفجر: «ومررت ببيت ود الريس الوطئ عند منعطف الدرب، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءًا خافتًا، وسمعت زوجة ود الريس تصرخ باللذة. وأحسست بالخجل لأنني اطلعت على أمر لم يكن من حقي أن أطلع عليه»

لا تعارض أو تناقض عند ود الريس بين الدين والإسراف في الولع بالجنس، وجانب كبير من المصالحة والانسجام ينبع من بساطة الرجل وابتعاده عن الإيقاع الراكد وادعاء الزهد والحكمة. إنه لا يتورع عن توظيف الدين، كما يريد أن يفهمه، لخدمة رؤاه وتبرير سلوكه، دون تفكير جاد في صحة ودقة ما يستشهد به للبرهنة على صدقه: «الله سبحانه حلل الزواج وحلل الطلاق وقال ما معناه خذوهن بإحسان أو فارقوهن بإحسان. وقال في كتابه العزيز: النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا.

وقلت لود الريس إن القرآن لم يقل: «النسوان والبنون» ولكنه قال «المال والبنون». فقال: مهما يكن، لا توجد لذة أعظم من لذة النكاح».

لا يحفظ النص القرآني الذي يستشهد به للدفاع عن ولعه المتطرف بالنساء والجنس، ولا ينشغل كثيرًا أو قليلاً بالتصحيح الذي يقدمه الراوي، ذلك أن اليقين الوحيد الراسخ المستقر يتمثل في إيمانه المطلق بأن لذة النكاح هي الأعظم والأمتع!.

في هذا السياق، يبدو ود الرس انتقائيًا عشوائيًا في تعامله مع الدين، فإذ يؤكد صديق العمر بكري أن الختانة من شروط الإسلام، يندفع لتفنيد مقولته مستشهدًا بتجارب إسلامية مختلفة لا تقر الختان: «أي إسلام هذا؟ إسلامك أنت وإسلام حاج أحمد، لأنكم لا تعرفون الذي يصلحكم من الذي يضركم. الفلاتة والمصريون وعرب الشام. أليسوا مسلمين مثلنا؟ لكنهم ناس يعرفون الأصول. يتركون نساءهم كما خلقهن الله. أما نحن فنجزهن كما تُجز البهيمة».

في دفاعه المستميت هذا لا ينشغل ود الريس بحق المرأة. في المتعة الجنسية، التي تكبلها عادة الختان، فالبطولة الحقيقية عنده أن تكون مصدرًا لإمتاع الرجل وإشباعه، ولن يتحقق هدف كهذا بمعزل عن تجنب الختان وآثاره السلبية.

إيمان ود الريس هو النمط السائد عند العوام البسطاء الذين يكرهون الإسراف في التنظير، ويضيقون بالتفسيرات العميقة المعقدة الغامضة. لاشك أنه يراهن في المقام الأول على رحمة الله ومغفرته، أو كما يقول في نهاية جلسة السمر مع أصدقاء العمر: «أستغفر الله العظيم. أيام نقضيها على وجه الأرض وبعدها ربنا يفعل فينا ما يشاء».

من ناحية أخرى، ففي الأيام القليلة التي يقضيها الإنسان على وجه الأرض، لابد من اقتناص المتعة التي لا تعرف الحدود والقيود، ولأن المجتمع الذكوري ينحاز إلى الرجل ويمنحه كل الحقوق، ويتحامل على المرأة ويلزمها بالطاعة وأداء كل الواجبات دون تقصير أو احتجاج. فإن تطلع العجوز السبعيني إلى الزواج من أرملة مصطفى سعيد، وهي شابة لا تتجاوز الثلاثين، لا يمثل مفاجأة صادمة تستدعي الدهشة، لكن المستغرب المستهجن هو رفضها!.

الراوي الشاب، ذو الثقافة الغربية والأفكار العصرية المستنيرة، لا يخفي استياءه واشمئزازه من رغبة العجوز: «وأتصور حسنة بنت محمود، أرملة مصطفى سعيد، في الثلاثين من العمر، تبكي تحت ود الريس الذي بلغ السبعين، ويتحول بكاؤها إلى قصص من قصص ود الريس المشهورة عن نسائه الكثيرات، يتندر بها رجال البلد، فيزداد الغيظ في صدري ضراوة».

الغضب شعور ذاتي سلبي لا يغير شيئًا من العادات والأعراف الاجتماعية الراسخة المستقرة ذات القداسة، والتحليل الذي يقدمه الراوي قد يكون صحيحًا، لكنه لا يلزم أحدًا غيره: «هذا هو القربان الذي يريد ود الريس أن يذبحه على حافة القبر، ويرشي به الموت فيهمله عامًا أو عامين».

لا تتردد حسنة في الرفض، ويمثل رد فعل ود الريس تجسيدًا للمرارة التي تسيطر عليه جراء موقفها الذي لم يكن يتصوره، فالنساء عنده خُلقن لطاعة الرجال وإشباعهم جنسيًا: «لم أكن أحسب أن الخبر سيقع عليه كما وقع فعلاً. لكن ود الريس الذي يبدل النساء كما يبدل الحمير، يجلس أمامي الآن. وجهه مربد وجفناه يرتعشان، وقد عض شفته السفلى حتى كاد يقطعها. أخذ يتململ في مقعده وينقر الأرض في عصبية بالغة بعصاه. خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبسه عدة مرات، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس، ويفتح فمه كأنه يريد أن

يتكلم ثم يسكت. يا للعجب. هل معقول أن ود الريس عاشق؟ وقلت له: لن تعدم امرأة غيرها تتزوجها.

قال وعيناه الذكيتان لم تعودا ذكيتين، أصبحتا كرتين من الزجاج قد استقرتا على حالة واحدة جامدة: لن أتزوج غيرها. ستقبلني وأنفها صاغر. هل تظن أنها ملكة أو أميرة؟ الأرامل في هذا البلد أكثر من جوع البطن. تحمد الله أنها وجدت زوجًا مثلي».

لا مبالغة في تشبيه الراوي للنساء بالحمير في سياق الحديث عن رجل مثل ود الريس، فهذا هو جوهر رؤيته للمرأة، أما الإسراف في الغضب والاستياء فله أسبابه الذاتية والموضوعية المتشابكة المتداخلة. الرفض إهانة شخصية مباشرة على الصعيد الذاتي من ناحية، وتمرد غير مسبوق على تقاليد المجتمع ومنظومته المستقرة من ناحية أخرى. المسألة عند العجوز الساخط ليست حبًا وعشقًا على النحو الذي يفكر فيه الراوي، لكنها تتعلق بالكرامة المهدرة المهددة، وهذا ما يقود إلى العناد والمزيد من التعنت. المنطقي عنده أن تقبل شاكرة مرحبة مغمورة بالسعادة والرضا، وغير المنطقي أن تنقلب الأحوال وتتبدل الأدوار فيقبل عليها وتنصرف. المناقشة الموضوعية العقلانية الهادئة لن تجدي بطبيعة الحال، واستمرار الراوي في الحوار المنظم يدفع ود الريس إلى زاوية جديدة في الهجوم العنيف الذي يشنه على الأرملة المتمردة والراوي أيضًا: «بغتة تدفق من ود الريس غضب جنوني لم أكن أظن أنه من طبيعته. ثار ثورة عارمة، وقال شيئًا أدهشني حقيقة: اسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج. أنت السبب. لاشك أن بينك وبينها شيئًا. ما دخلك أنت؟ أنت لست أباها ولا أخاها ولا ولي أمرها. إنها ستتزوجني رغم أنفك وأنفها. أبوها قبل وأخواتها قبلوا. الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في المدارس لا يسير عندنا. هذا البلد فيه الرجال قوامون على النساء».

في كلماته العفوية المتدفقة يندمج الذاتي والموضوعي، الشخصي والعام، الفردي والمجتمعي. لا حق للمرأة في الرفض والقبول، فهي تابعة خانعة ينبغي أن تطيع الأب والأخ، والقيم الغربية التي يروجون لها في المدارس «كلام فارغ» لا يعتد به ولا متسع له في واقع يتسيده الرجال ويتحكمون في مقدرات النساء.

المستنيرون في مجتمع القرية التقليدية، مثل محجوب، يجدون أنفسهم أقرب إلى الخندق

الذي يقف فيه ود الريس، ويطرحون تفسيرًا متماسكًا لعناده وإصراره المستمد من القيم الموروثة المهيمنة التي ينشأ الجميع تحت رايتها: «ود الريس كهؤلاء الناس المغرمين باقتناء الحمير، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة إلا إذا رأى رجلاً آخر راكبًا عليها. يراها حينئذ جميلة ويسعى جاهدًا لشرائها حتى ولو دفع فيها أكثر مما تستحق».

مرة أخرى يتكرر الاقتران الدال بين النساء والحمير، فالمرأة والحمارة من المقتنيات الجديرة بالتنافس. محجوب، في أعماقه، يتحفظ على زيجة غير متكافئة كهذه، لكنه لا يستطيع أن يغير شيئًا من الثوابت الموروثة ذات القداسة والهيبة، وغاية ما يفعله هو تقديم تحليل عملي يتمثل في قوله لصديقه الراوي: «هون عليك. حتمًا ود الريس سينشغل بامرأة أخرى. وعلى أسوأ الفروض تتزوجه. لا أظنه يعيش أكثر من عام أو عامين. ويكون لها سهم في أرضه وزرعه الكثير».

على المرأة أن تطيع وتخضع، ولا شيء تملكه في المقابل إلا انتظار نهاية قدرية لا تستطيع أن تتحكم فيها. بالشتائم والضرب الذي تتعرض له حسنة من أبيها، يتم الزواج الذي لا تريده، وفي حوارها مع الراوي قبل الرضوخ للزيجة الاضطرارية، تهدد وتنذر: «إذا أجبروني على الزواج، فإنني سأقتله وأقتل نفسي».

لم يكن تهديد حسنة مبالغة انفعالية تنفيسية للتعبير بشكل بلاغي مجازي عن إصرارها على الرفض، فهي تعني ما تقول، وتأبى بعد الزواج أن تمنح جسدها لود الريس، الذي لا هدف له من الاقتران بها إلا الجنس: «أقامت عنده أسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها. كانت.. كان في حالة لا توصف. كالمجنون. اشتكي لطوب الأرض. يقول كيف تكون في بيته امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولا يكون بينهما ما يكون بين الزوج وزوجته».

يبرهن سلوك حسنة العملي على الكراهية العميقة التي تحملها للزوج المفروض عليها، والإصرار على الامتناع الجسدي يقترب بود الريس من الجنون. لا يقنع بالشكوى للمحيطين به، ويفيض به الكيل فيسعى لتحقيق رغبته المشتعلة بالقوة التي تغذيها الشهوة، وعندئذ تقع الجريمة المروعة.

يتوهم سامعو صرخات حسنة أنها صيحات النشوة النابعة من اللذة الجنسية بعد استسلامها

و إذعانها، لكن صوت ود الريس يعلو كاشفًا عن الحقيقة الصادمة التي لا يتوقعها أحد: «يا بكري. يا حاج أحمد. يا بت الريس. يا جماعة. بت محمود قتلتني».

المشهد كما تصفه بنت مجذوب للراوي، مروع حافل بالدماء المترتبة على معركة عنيفة بين عدوين مسكونين بالكراهية: «وجدت بنت محمود معضوضة ومخدشة في كل شبر من جسمها. بطنها. أوراكها. رقبتها. عض حلمة نهدها حتى قطعها. الدم يسيل من شفتها السفلى. لا حول ولا قوة إلا بالله. وود الريس مطعون أكثر من عشر طعنات. طعنته في بطنه وفي صدره وفي محسنه. ولم تستطع بنت مجذوب أن تستمر. بلعت ريقها بصعوبة وارتعش حلقومها ثم قالت: اللهم لا اعتراض على حكمك. وجدناها على ظهرها والسكين مغروز في قلبها. فمها مفتوح، وعيناها تبحلقان كأنها حية. وود الريس لسانه مدلدل بين فكيه، وذراعاه مرفوعتان في الهواء».

لا تحتاج اللوحة الدموية إلى كثير من الجهد لاكتشاف محاولة الاغتصاب القهري التي يقوم بها ود الريس، والمقاومة الشرسة لحسنة محمود. لاشك أن الشهوة المشتعلة المكبوتة تدفعه إلى نيل حقوقه الزوجية بالقوة، عبر ممارسة سادية عنيفة، وبعدها تنتقل حسنة من المقاومة السلبية إلى الهجوم المضاد، فيموتان معًا. تقتله بأكثر من عشر طعنات، ثم تقتل نفسها منتحرة بطعنة نافذة في القلب.

النهاية المأسوية الكارثية منطقية مبررة، يتحمل العجوز ود الريس مسئوليتها بالعناد وجنون الشهوة. الزوجة عنده لا تتجاوز دور الأداة المسخرة للإشباع الجنسي، ولعل رؤيته الأحادية هذه هي ما تدفع الزوجة القديمة مبروكة لاتخاذ موقف بالغ الشذوذ بعد موته، فعندما توقظها بنت مجذوب من نومها الثقيل وتبلغها بالجريمة البشعة التي تقع في الغرفة المجاورة، لا تبدي اهتمامًا أو تظهر حزنًا: «في ستين داهية. وواصلت نومها!».

لا تغير مبروكة شيئًا من عاداتها المألوفة، ويراها العائدون من الدفن جالسة تشرب قهوتها، وتنهر النساء عند شروعهن في البكاء: «يا نساء. كل واحدة تروح في حالها. ود الريس حفر قبره بيده. وبنت محمود بارك الله فيها، خلصت منه القديم والجديد. ثم زغردت. أي والله يا ولدي، زغردت. وقالت للنساء: نكاية فيكن. التي لا يعجبها تشرب من البحر».

لا تحمل مبروكة لزوجها القتيل ذرة من الحب، والزغاريد التي تطلقها تمثل نشازًا شاذًا

بالنظر إلى أجواء الموت المحيطة. إنه الحقد المتراكم، الذي يتم التعبير عنه دون مراعاة للحد الأدنى من الأصول والأعراف.

بعد قتل ود الريس، يقدم صديقه المقرب الحاج أحمد تقييمًا إيجابيًا متعاطفًا لشخصيته، لا يخلو من الإشارة إلى أوجه الخلل المفضية إلى النهاية الكارثية: «كان رجلاً عديم النظير، دائمًا يضحك، دائمًا تجده وقت الشدة. لم يطلب منه أحد حاجة وقال لا. ليته سمع كلامي. ينتهي هذه النهاية. لا حول ولا قوة إلا بالله. أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا البلد منذ خلقه الله. محن آخر الزمن».

السمات والصفات الإيجابية لا تجدي شيئًا بفعل الشهوة العاتية والعناد الذي لا يصغي إلى النصح، وهذا ما يقوده إلى الهلاك فلا تبقى منه إلا حكايات تُروى ويُحتفظ بها في تاريخ القرية، مقترنة بكل ما هو سلبي غرائبي.

من ناحية أخرى، تلوح أوجه شبه لا يمكن إنكارها بين ود الريس ومصطفى سعيد، مع الإقرار بالفواصل الشاسعة التي تفصلهما. المؤثر الجنسي هو المشترك بينهما، فلا اختلاف بين مغامرات مصطفى في لندن، وما يفعله ود الريس في القرية، واللافت للنظر أن مكتبة مصطفى تحوي عديدًا من الاسكتشات لرجال ونساء القرية: «وقد رسمهم مصطفى سعيد بوضوح رؤية وبعطف يقرب من الحب. ووجه ود الريس يتردد أكثر من الباقين. ثمانية رسوم لود الريس في تعابير مختلفة. لماذا اهتم بود الريس كل هذا الاهتمام؟».

لابد أنه كان يستشعر ما بينهما من مشتركات، لكنه لم يتخيل بطبيعة الحال أن يتزوج ود الريس أرملته حسنة، ثم يُقتل على يديها قبل أن تنتحر!.

❐❐❐

obeikandl.com

فهرس الشخصيات

الشخصية	رقم
آمنة	9
أبو الراوي	10
أحمد	11
الأعرابي	16
اليزابيث	17
أم الراوي	20
بكري	21
بنت مجذوب	23
حسنة محمود	27
الراوي	35
رتشارد	44
روبنسن	46
زوج إيزابيلا	49
ستكول	51
سعيد	52
سعيد مصطفى سعيد	53
سيمور «إيزابيلا»	54
عبدالكريم	57
عبد المنان	58
العمدة	59
غرينود «شيلا»	61
فاطمة عبد الصادق	63
فستركين «ماكسول»	66
المأمور	69
مبروكة	70
محجوب	71
محمود	75
محمود مصطفى سعيد	76
مصطفى سعيد	76
منصور	91
مورس «جين»	92
هغنز «آرثر»	97
همند	98
همند «آن»	100
ود البشير	103
ود البصير	104
ود الريس	105

obeikandl.com

obeikandl.com

المؤلفات المنشورة

أولاً: في الرواية

1- الصورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أصوات أدبية، 1995.

2- لمحات من حياة المواطن م .ب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996.

3- أحلام سرية، دار الأحمدي للطباعة والنشر، 1998.

4- السيد الأستاذ الدكتور العميد، دار الهدى، 2003.

5- لعبة الحب، روايات الهلال، 2008.

6- أمير المؤمنين، دار كنوز، 2012.

7- يوم، دار رهف، 2013.

8- إنسان، دار كنوز، 2014.

ثانياً: في النقد الأدبي

9- صورة الموظف في روايات نجيب محفوظ، مكتبة السلام، 1990.

10- الرؤية الوفدية في أدب نجيب محفوظ، مكتبة السلام، 1991.

11- الفكاهة عند نجيب محفوظ، دار لونجمان، 1994.

12- عصير الشخصية المصرية.. قراءة في رباعيات صلاح جاهين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1996.

13- معجم أعلام نجيب محفوظ، مطابع الأهرام التجارية، 1998.

14- معجم أعلام رواية «شقة الحرية» لغازي القصيبي، 1998.

obeikandl.com

15- محمد بن عبد الله ﷺ في الأدب العربي، دار الهدى، 1998.

16- جمال عبد الناصر في الأدب العربي، دار الهدى، 1998.

17- أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ، دار الهدى، 2001.

18- الفلاح و السلطة في أدب يوسف القعيد، دار الهدى، 2001.

19- الفلاح و السلطة في السينما المصرية، جامعة المنيا، 2002.

20- السادات في الرواية العربية، دار فرحة، 2002.

21- السينما في عالم نجيب محفوظ، مكتبة الإسكندرية، 2002.

22- أمريكا في عالم نجيب محفوظ، طبعة محدودة، 2002.

23- الكلب في عالم نجيب محفوظ، طبعة محدودة، 2002.

24- الوظيفة الاجتماعية للماء في الأدب المصري، مصر المحروسة، 2003.

25- أم كلثوم في الأدب المصري، دار الهدى، 2003.

26- كشف الأقنعة .. صنع الله إبراهيم و هؤلاء، دار العالم الثالث، 2003.

27- صنع الله إبراهيم شاهدًا لا مشاهدًا، دار الهدى، 2004.

28- سعد زغلول في الأدب المصري، كتاب الهلال، 2004.

29- نجيب محفوظ والإخوان المسلمون، كتاب اليوم، 2005.

30- الملك فاروق في الأدب المصري، دار شرقيات، 2007.

31- الشذوذ الجنسي في الأدب المصري، نون للنشر و التوزيع، 2009.

32- حقوق الإنسان والثقافة العربية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 2010.

33- النبي محمد في الأدب المصري، كتاب اليوم، 2010.

obeikandl.com

34- دراسات في قصص يوسف الشاروني، المجلس الأعلى للثقافة، 2013.

35- وطنيون وطائفيون.. شخصيات مسيحية في الأدب المصري، 2014.

36- معجم شخصيات نجيب محفوظ، دار الشروق، 4 أجزاء، 2015.

ثالثاً: سلسلة رواد الاستثمار

37- محمد أحمد فرغلي .. ملك القطن.

38- أحمد عبود .. الاقتصادي العصامي.

39- فاطمة اليوسف .. الريادة و الإرادة.

40- عبد اللطيف أبو رجيلة .. امبراطور الأتوبيس.

41- آسيا داغر .. صانعة البهجة.

42- محمد فوزى .. المجد و الدموع.

43- سيد جلال .. ابن البلد.

44- سيد ياسين .. عاشق النجاح.

45- أنطون سيدهم .. مواطن محترم.

46- محمود أبو الفتح .. الصحافة و الوطن.

47- سمعان صيدناوي .. المصري.

رابعاً: وصف مصر في أدب نجيب محفوظ

48- الملوك و الزعماء و الرؤساء.

49- تعدد الزوجات.

obeikandl.com

50- القرآن الكريم.

51- الدعارة والعاهرات.

52- المسيحية والمسيحيون.

53- ثورة يوليو.

obeikandl.com

سيكون المؤلف ممتناً إذا تفضل القارئ الكريم بإبداء ما قد يعن له من ملاحظات:

01025552527 - 01005762597

Bayoumi1112@gmail.com

الفهرس

الموضوعات	صفحة
مقدمة	5
أ	9
ب	21
ح	27
ر	35
ز	49
س	51
ع	57
غ	61
ف	63
م	69
هـ	97
و	103
فهرس الشخصيات	113
المؤلفات المنشورة	115

obeikandi.com